

رقم ٥ — سلسلة المباحث الخطيرة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين
http://al-maktabeh.com



لخصه عن الانكليزية

حبيب سعيد

(طبعة ثانية)

صدر عن

دار «الشرق والغرب»

بولاق (مصر) : وكتدرائية سنت جورج بالقدس

تقديم الكتاب

علم القانون المقارن من العلوم التي لا غنى عنها لرجل القانون لتكوين عقليته القانونية. وعلم الدين المقارن من العلوم المرعية الجانب في كليات الدين لانارة أذهان الطلاب والباحثين لتفهم وجهات النظر المختلفة ، وتقوية روح الانصاف والتسامح تلقاء آراء الآخرين وعقائدهم .

لهذا رأينا اصدار هذا الكتاب ، وقد جمع بين دفتيه فصولاً عن البوذية والهندوسية والكنفوشية والشنتوية ملخصة عن كتابين للاستاذ « وليم باتون » ، ثم فصولاً أخرى عن الاديان السامية الثلاثة — اليهودية والمسيحية والاسلام — وقد آثرنا أن يتحدث كل من هذه الأديان الثلاثة عن نفسه على لسان عالم من علمائه .

ولم يتعرض الكتاب الى الاديان الوثنية الفطرية . لا لأنها غير خليقة بالدرس ، فان فريقاً من علماء هذا العصر قد توفر على دراستها ، ولكن لان نطاق كتاب مختصر كهذا يحول دون التبسط في عقائد متشعبة اتخذت أوضاعاً متباينة في رقاع كثيرة من أجزاء المعمور .

وفي آخر الكتاب ملحقان — أحدهما يبين القوة العددية لكل من هذه الأديان ، ويبين الآخر تواريخ بعض الحوادث البارزة التي أشير اليها .

واكبر الظن أن هذا هو الكتاب الاول من نوعه في اللغة العربية ، فيه من طرافة البحث ولذته ، ما يحمل القارىء على الدرس والتأمل ، وموازنة آراء الاخرين بروح النصفة وحسن التقدير ؟

طبع في مطبعة النيل المسيحية

١

البوذية

يقال ان للبوذية اتباعاً أكثر من أي دين آخر . ويزعم بعضهم انها ملجأ حصين لخمس مائة مليون من الأنفس البشرية . ولكن الأرقام تخدع كثيراً. وهذا الزعم يستند في الغالب الى ان بلاد الصين بوذية كلها ، بينا يتقاسمها في الواقع أديان ثلاثة هي البوذية والكنفوشية والتاوستية ، كما يتقاسم اليابان اديان ثلاثة أيضاً هي البوذية والكنفوشية والشنتوية .

مذاهب البوذية المختلفة

والبوذية تشمل أشياء كثيرة. فهناك المذهبان الكبيران الشمالي والجنوبي، وينقسم كل منهما إلى عدة من الطوائف . والمذهب الشمالي بكتبه المقدسة في اللغة السنسكريتية منتشر في الصين واليابان والتيبت ونيبال وجاوة وسومطرا. أما المذهب الجنوبي وكتبه المقدسة باللغة الباليّة فمنتشر في بورما وسيلان وسيام . ولو ان اتباع هذا الأخير أقل عدداً من الأول ، فانه أقرب كثيراً إلى الاصل ولم يداخله إلا القليل من العناصر الغريبة في تطوره التاريخي الطويل. ولذا سنقتصر في بحثنا الآن على هذا الأخير لانه يمثل الدين الاصلي الذي علم به بوذا .

المؤسس

من الحقائق المقررة ان شخصاً هو الذي أسس البوذية . ولقد حاول بعض العلماء إحاطته بأسطورة شمسية ، شأن كثير من شخصيات التاريخ الغارقة في القدم، ولكن الدليل على وجود هذا الشخص جلي لاغموض فيه . ولئن تعذر علينا التميز بين ماهو حق وماهو أسطوري في تاريخ حياته ، فان الوقائع الأصلية ثابتة مؤكدة. والمعروف ان مؤسس هذا الدين قد ولد في أواخر القرن السادس أو أوائل القرن الخامس قبل المسيح في مدينة صغيرة تقع بين مدينة بنارس وجبال الهملايا شمال نهر الكنج المقدس . وكان أبوه (راجا) زعيم قبيلته وأطلق على أسرته لقب «غوتاما» . واسمه الشخصي « سدهارثا » (اما كلمة « بوذا » ومعناها « المستنير » فليست اسمه الشخصي بل هي اللقب الذي خلع عليه. ولعل « غوتاما » أكثر الالقاب ذيوعاً ، وهو اللقب الذي نطلقه عليه في بحثنا) .

كان ابن ملك ، تحدر من سلالة عريقة المحتد ، وامتاز بقوى في العقل والبدن . ثم تزوج في سن مبكرة من ابنة أحد الأمراء. ونظر وإذا بالمستقبل الباهر يمتد تحت قدميه. على أن نفسه لم تهدأ على حال من القلق ، ففي غمرة النعيم الذي كان يرفل فيه حامت حول مخيلته أسئلة لم ير لها حلاً . وطفق العقل الحائر ينقب حول معنى الحياة ، حتى امست الحياة عبئاً تنوء به الظهور. وأعقد مشكلة طغت على نفسه،وهو يتمرغ في نعماء الحياة واطايبها،هي مشكلة الآلام البشرية . فان النعماء التي كان فيها مقيماً ، جعلت هذه المشكلة شوكة

مسننة في نفسه. وعنه تروى الأقاصيص عن التقائه برجل شيخ قد أفنى المرض بدنه ، أو رؤيته جثة قد أمعن فيها الفساد بلاءً ، فترعبه تلك المناظر وتأخذ عليه السبل . ولم يطل به الأمر حتى لجأ إلى حياة الزهد والتقشف مؤملاً أن تزاح الغشاوة عن عينيه،و يغور إلى أسرار معنى الحياة بعد أن يتحرر من ربط الاسرة وهموم العالم ، و ينصرف إلى التأمل واماتة الجسد .

بحثه عن النور

و بعد إذ غادر أسرته ارتمى في أحضان بعض المعلمين من النساك فتلقى عنهم تعاليم البراهمة. وقد صاغ النظام الذي وضعه فيما بعد على أساس مطارحاته مع ذلكم النفر من الزاهدين . على ان أساليب تقشفهم ودمدمتهم بالالفاظ المألوفة، مع إغراق عقولهم وتفكيرهم في براهما — كل هذه لم تجدِهِ شيئاً .

وكانت الخطوة الثانية ان لجأ هو وخمسة من اترابه إلى غابة هادئة للاختلاء ، والتأمل ، وترويض النفس . وهناك قسا على جسده وعقله وأذلهما أيما اذلال ، فكان غذاؤه اليومي حبة من الارز. وجاهد جهاداً عنيفاً لادماج نفسه في الروح الالهي ، كما فعل قليل من زهاد الهنود ، حتى حُسب أعظم القديسين شأناً في قومه . وفجأة أحس عقم هذه الجهود الضائعة ، وفي شجاعة نادرة صارح زملاءه بأن تجربته قد فشلت ، وعاد يتناول طعامه العادي . فما كان من أصدقائه الخمسة الذين زاملوه في خلوته إلا ان مضوا الى حال سبيلهم آسفين . وكانوا قد أملوا فيه كثيراً حين رأوا غيرته المتقدة ، والآن يرونه يخيب آمالهم خيبة مريرة .

أما الخطوة الثالثة فكان سنة كاملة قضاها في تأمل عميق ، وفي عزلة كاملة . وكانت الشكوك والمخاوف قد تنازعت نفس غوتاما ، فهو قد اقتنع ان اماتة نفسه واذلالها لم يجدياه نفعاً ، وهو ما يزال حائراً مضطرباً يتخبط على غير هدى . فساورته الافكار ان يعود إلى موطنه ويعدل عن سعيه . وفي ذات يوم جلس يتناول طعام الإفطار تحت ظل شجرة صارت فيما بعد مقدسة في نظر البوذيين، حتى نظروا اليها نظرة المسيحيين إلى الصليب . وهناك قضى اليوم كله ، والليل كله ، في نزاع داخلي ، حتى إذا بزغ نور الفجر ، أشرق عليه نور الحق ينبئه ان شقاء الحياة وعناءها وضجرها تنبعث من رغبات النفس، وان الانسان مستطيع ان يكون سيد رغباته لا عبداً لها ، وان في مقدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين . فهجر غوتاما مشهد التريث والانتظار، وطفق يحمل رسالته إلى العالم ، رسالة قد نقشت على قلبه بأحرف من نار. ولقد حدثته نفسه أن يحتفظ بهذه الرسالة لنفسه، ويستمتع بالنور دون أن يشرك فيه أحداً ، لانه خشي ان يقصر الناس عن فهم رسالته قبل أن يختبروا طور التدريب والمران الذي اختبره هو. وقيل إن الباعث الذي دفعه إلى أن يكون مرسلاً ومبشراً هو محبته للبشرية ورغبته في أن يشاطره الناس هذا الحق الجديد المهذِّب للنفس . والبوذيون الاتقياء يشكرون الله في غير انقطاع لاجل هذا الصنيع الذي أتاه بوذا وأنكر فيه ذاته .

ذهب أولاً إلى الرفاق الخمسة الذين هجروه ، وحين سمعوا قصته ، قبلوا رسالته وتبعوه . وكان بين أنصاره الاولين فئة من الشبان ذوي الكرامة والمكانة . وفي قليل من الزمن جمع اليه ستين من صحابته ، وجعل منهم نواة الهيئة التي بعثها لنشر دعايته والتبشير برسالته . أما هو فعاد إلى مسقط رأسه ليرى أبويه وزوجته . وعبثاً حاولوا اقناعه للعدول عن دعوته — وقد قال لأبيه الذي عاب عليه استجداءه في الطرقات وذكّره بسلالته الملوكية : « قد تدّعي أنت وأسرتك التحدر من سلالة الملوك ، واما أنا فأنتسب إلى نسل بوذا منذ القدم ، وهم قد عاشوا يستجدون طيلة حياتهم كلها » . وظل أربعين سنة يجاهد في نشر دعوته وتثبيت النظام الذي وضعه متنقلاً من مكان إلى آخر ، يتناول الطعام الذي يجود به عليه الخيرون من الاغنياء والفقراء ، ويعلّم كل من أقبل اليه للاسترشاد به . وفي الثمانين من عمره قضى نحبه . وله من الكلمات التي تفوه بها على سرير الموت ما خلده التاريخ . فهو القائل : « كونوا لانفسكم نوراً ، وملجأ حصيناً ، ولا تلوذوا بغير أنفسكم » — « قد تفكرون في أنفسكم قائلين : الآن انتهت الكلمة بعد إذ قضى معلمنا ، ولكن اياكم وهذا التفكير . واعملوا بعد موتي لتثبيت الناموس الذي علمتكم اياه والنظام الذي أرشدتكم اليه . وكونوا لأنفسكم خير المعلمين » . وأما كلماته الأخيرة فهي : « أيها الشحاذون المستجدون : الآن أوصيكم بان عناصر الانسان وقواه ينبغي أن تذوب وتفنى ، فتمموا خلاصكم بجد ومثابرة » .

كان لاخلاق غوتاما الشخصية ، أكبر الأثر في الدين الذي أسسه ، ولو ان الكلمات التي اقتبسناها الآن تدلنا على انه لم يومىء إلى نفسه بل إلى الحق الذي أعطاه . وقد كانت رقة نفسه وهدوؤها ، ومحبته للانسانية ، ورغبته في انكار ذاته لتخفيف الآلام والاوجاع — كانت هذه كلها أفضل العناصر في أخلاقه التي يرجع اليها أكبر الفضل في نشر تعاليمه . ونشاهد حتى اليوم ، حيث تتحرر البوذية من الملابسات المتأخرة ، ويبدو شكل بوذا مجرداً عن عوامل الاصطناع ، شيئاً من هذه الصفات الادبية في نفوس اتباعه والمؤمنين به .

وفي الكتب البوذية قصة تصلح مثلاً على كرم أخلاقه : يُروى ان فلاحاً برهمياً كان يحرث حقلاً ،وإذا ببوذا يجيء اليه وفي يده وعاء يستعطيْ فيه فقال له الفلاح : « أيها الناسك : عليّ ان أحرث وأزرع ، لأكسب عيشي . فعليك أنت أيضاً ان تكافح وتعمل ثم تأكل» . فأجابه بوذا: «أيها البرهمي : أنا أحرث وأزرع ، وبغير هذا لا آكل ». فيقول له الفلاح : « لا أرى نيراً ، ولا محراثاً ، ولا منخساً ، ولا ثيراناً » . ويجيبه بوذا بعبارات شعرية قائلا :

« أنا فلاح بحق ، أيها السيد ، والآراء الصائبة هي البذار المثمر الذي أبذره . وتدريب النفس هو المطر الذي أسقي به . أما الحكمة فهي نيري ومحراثي، والوداعة منسي، والاهتمام بالغير محور عجلي ، واليقظة مِنْخسي ...

« و بتهذيب الفكر والقول والفعل أنقي الارض من أعشابها الضارة ، و بطريق الخلاص أنادي . . .

« أما ثوري فهو السعي المتواصل الذي يحملني في غير ملل الى حيث لا يصيبني حزن حتى أقرب الى نرفانا ، وهو الهدف الذي اليه أسعى » .

عندئذ يصبُّ الفلاح البرهمي الارز الممزوج باللبن في وعاء من الذهب و يقدمه الى غوتاما قائلاً :—

« في الحق أنت فلاح بكل معنى الكلمة . وحصاد الحق هو طعامك الشهي . اشرب هذا يا سيد هنيئاً. و بعد اليوم أنا أطوع لك من بنانك ».

الحقائق الاربع

وغوتاما نفسه ينكر انه جاء لينادي مبدئياً بنظام في الآداب والاخلاق. ولكنهُ رغب في أن يقتبس البشر الحقائق الاربع التي تلقّاها تحت الشجرة المقدسة ، والتي هي أساس النظام الذي وضعه . أما هذه الحقائق فهي :

١ — الولم أو الحزن : الولادة، والنمو، والمرض، والموت، وفراق الاحياء، وكل ما يتصل بوجود الفرد — هذه كلها تجيء علينا بالأحزان .

٢ — علة الحزن : إن اهتياج العاطفة بعد ثورتها ، واللذة في تملّك الاشياء أو الرغبة في احتيازها ، والشهوة ، ومحبة العالم الحاضر ، والشوق الى عالم مستقبل— وقصارى القول الشهوات والرغبات، هي أصل آلامنا وأوجاعنا.

٣ — ابطال الحزن : يبطل الحزن متى بطلت شهوة الحياة وانتفى الظمأ الى هذه الاشياء .

٤ — طريق ابطال الحزن : ولتحقيق هذا طريق واحد ، هو الحياة الفضلى المفكرة ذات الثماني شعب .

أما هذه الشعب الثمان فهي :

الآراء السليمة ، والشعور الصائب ، والقول الحق ، والسلوك الحسن ، والحياة الفضلى ، والسعي المشكور ، والذكرى الصالحة ، والتأمل الصحيح .

الاطوار الاربعة

ولهذه الطريقة أربعة أطوار (والبوذية حافلة بعدد لا يحصى من الاحكام والحقائق ، والرذائل والفضائل ، يعرفها البوذيون بالاسم ، كما يعرف المسيحيون وصاياهم العشر) . وفي خلال هذه الاطوار الاربعة تتكسر القيود العشرة. فالطور الاول هو الاحياء والتجديد حين يدرك الانسان معنى الحقائق الاربع المشهورة. وعند بلوغ هذا الطور يقوى على كسر القيود الثلاثة الاولى — وهي الوهم الخادع في وجود النفس ، والشك في بوذا وتعاليمه ، والاعتقاد في تأثير الطقوس والرسوم الدينية. أما في الطور الثاني فيقوى المهتدي على التخفيف من حدة الشهوة والكراهية وغرور الاوهام . وفي الطور الثالث يحطم قيود الشهوة تحطيماً . وأما الطور الرابع فيسمى صراط المقدّسين ، وفي هذا الطور يتحرر القديس من القيود الباقية، وهي الرغبة في البقاء المادي وغير المادي ، والكبرياء ، والاعتداد بالبر الذاتي ، والجهل . وعند بلوغه هذا الطور يكون قد وصل الهدف الذي يسعى اليه ، وهو « نرفانا » .

ما هي النرفانا ؟

قلنا ان « النرفانا » هي الطور الرابع الذي يبلغه البوذي في مصارعاته وجهوده النفسية عن طريق الاذلال والتعبد . فما هي النرفانا هذه ؟ الفكر السائد أنها الاندماج في الله والفناء فيه . ولكن البوذية لا تعرف إلهاً قط ، وفكرة هذا الفناء في الالهية غريبة غير مألوفة فيها. وكانت رغبة الفناء في الله من الرغبات التي تاقت اليها نفس غوتاما مؤسس البوذية، وهو يمارس أساليب إذلال نفسه قبل أن تستعلن له الرؤيا تحت ظلال الشجرة المقدسة . ولكن مطامعه قد تبدلت فيما بعد ، أما النرفانا في عرف البوذي فهي الطور الرابع الذي يبلغه الناسك الزاهد بعد أن يكون قد حطم كل قيود نفسه وأغلالها ، ورغب عن شهوة البقاء ، وتملكه عقل هادىء مطمئن لا يتسرب اليه الخطأ، وتجرد عن كل الأماني والرغبات والجهالات وأسباب الخديعة والاغراء . بعد هذا كله يبلغ البوذي طور « النرفانا » ، يبلغه في حياته على الارض كما فعل غوتاما .

والحقيقة الاساسية في تعاليم مؤسس البوذية هي « ناموس العلة والمعلول». فالكون في نظره وحدة متصلة متماسكة، ومجموعة مركبة لا انفصام بين أجزائها. وهو مركب من مجموعة هائلة من العناصر المختلفة لا تزيد ولا تنقص بل يُعاد توزيعها باستمرار ، ويعاد ترتيبها ووضعها بحكم الناموس الخاضعة له . وكل مجموعة جديدة ان هي إلا علة نشأت عن المجموعة التي تقدمتها. ولكن غوتاما لم يقل شيئاً عن تلك « العلة الاولى » الذي يدير دفة هذا الكون ، ومحظور على البوذي التقي أن يبحث في هذا .

وكانت الصلة بين هذه الفكرة عن العالم، و بين طبيعة الانسان في غاية الخطورة . فللانسان ، فضلاً عن كيانه الجسماني ، خواص عدة هي المشاعر والاحاسيس والآراء والميول والقوى العقلية . وهذه الخواص، مقترنة بالكيان الجسماني ، تكوّن ما نسميه « النفس » أو « الذات » .

على أنه لم يكن في عرف «غوتاما» (خلافاً للبراهمة الذين صاغوا الفكر الهندوسي) شيء يدعى « الذات » أو « النفس ». ومعنى هذا أن « غوتاما » لم يسلِّم بوجود « الذات » كشخصية موّحدة. ولم يرَ إلاّ تلك المجموعة من الخواص أو الصفات الخاضعة للناموس الذي قلنا عنه فيما سبق ناموس « العلة والمعلول » . وهذه الخواص والصفات توزع من جديد عند الموت . وانتفاء هــذه الشخصية الموحدة يعني إنعدام الخلود بعد الموت . وما كان يقال ان « الذات » أو « النفس » تنعدم عند الموت . ذلك لانه لم يكن لها وجود في الاصل . أما العناصر التي يتكوّن منها الانسان فمصيرها عند الموت (في رأي غوتاما) التفكك والتجمّع ثانية في وجود جديد في مجموعة جديدة .

والمفروض أن العناصر المكوّنة للانسان ينبغي أن تخضع للناموس العام في الكون . ويتولد عن هــذا الخضوع تناسق في المجموعة كلها . غير أن الاماني والرغبات في الذات البشرية هي التي تولّد التنافر. وذلك لأن خواص الانسان ، من أحاسيس وميول وآراء ، متى اتصلت بالعالم الخارجي تخلق رغبة ملحّة .

وهنا يحق لنا القول ان كثيراً من هذه الرغبات والاماني صالحة لا غبار عليها ، ولها ما يبررها . ولكن غوتاما لا يسلّم مطلقاً أن الرغبات والاماني قد

تكون صالحة . فالرغبات عنده تنشأ عن الاعمال صالحة كانت أو شريرة ، ولكنها تعمل على إقصاء النفس من الحياة المركزية في الكون . وعند الموت تُنتج الرغبة ، التي يكون قد أشبعها الانسان ، وكذلك تُنتج الاعمال التي نشأت عنها ، كائناً جديداً . فان كان للانسان شهوات حيوانية وحشية ، تتجمع هذه العناصر كلها ، وقد تخلق بعد موته حيواناً شرساً وحشياً كالنمر .

قلنا ان النرفانا هي الطور الذي يبلغه البوذي في حياته بعد أن يتجرد من أمانيه وجهالاته . فاذا مات الجسد تزول الاماني والرغبات ويسري عليها ناموس « الكرما » ، أي أن كل عمل يأتيه الانسان له ثمرته حتماً ، وأن كل شيء يختبره في كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الاعمال التي يأتيها في الوجود السابق وهي بمثابة كفارة. فالنرفانا ليست في حد ذاتها موتاً ، بل هي حالة في السلام المقيم، والقداسة الكاملة، والتجرد من الاماني، والرغبات، ومن كل الاشياء التي تغري الانسان على التشبث بهذا الكيان المستقل — هي جنة البوذيين التي ينعمون فيها بعد التطور الادبي في الطريق ذي الشعب الثمان بأطوارها الاربعة .

ولذلك اكتفى بأن أعطى عامة الشعب مجموعة هائلة من التعاليم الادبية والاحكام والوصايا التي أودعها كتبه وأسهب فيها بقصص ذات مغزى أدبي. وهو يعتقد أن قليلين جداً هم الذين يبلغون النرفانا في جهادهم الاخلاقي .

طبيعة الالوهة

وهنا نجمل ما أسلفنا من أفكار لنتبين حقيقة الفكرة البوذية عن

الانسان ونقارنها بالفكرة المسيحية: أنكر بوذا صراحة وجود النفس البشرية. وعنده ان الشخصية الظاهرة تتكوّن من خمسة عناصر — هي الخواص المادية، والحواس، والآراء المجردة، والميول السابقة، والافكار. وهذه كلها تنحلّ عند الموت وتتفكك. ولولا وجود الرغبات، لما امكن أن تتحد هذه العناصر مرة أخرى. ولكن هذه الرغبات (وهو لا يعني بها مجرد الرغبات الدنيا الحيوانية، بل يقصد الرغبات اطلاقاً ومنها رغبة الوجود الفردي المستقل) تسوق الى العمل، والعمل يسوق — بدافع ناموس الكرما — الى خلق شخصية جديدة، وإيجاد نواة جديدة تتجمع حولها عناصر النفس. ونظرية الكرما الهندوسية[1] أساسها أن للانسان شخصية مفردة مستمرة متداولة في حياة متتابعة. ويظهر أن الشخصية في البوذية وهمية خيالية.

والدين المسيحي — كما لا يخفى — متصل باليهودية، لاحق لها. ولذلك يحسن أن نبدأ بفكرة أنبياء اسرائيل عن الانسان وعن العالم، وهي من المخلّفات الثمينة التي بقيت تراثاً للجنس البشري من أنبياء اليهودية. فالعالم والانسان مدينان بوجودهما — حسب الفكرة اليهودية — لله وهو مصدر بقائهما ودوامهما. هو الخالق عزّ وجلّ. وبهذا المعنى لا يكون الفرد منبثقاً من الله ولا جزءاً منه. انما الله متعال متسامٍ فوقه. وكما ان هناك خطاً فاصلا يميز الفرد عن أخيه في الانسانية، كذلك هناك خطٌ فاصل يميزه عن الله تعالى. وبين الشخصية الانسانية والشخصية الالهية شبه. لان في الانسان بعضَ ما هو إلهي بنسبة استجابته لنداء الله والاقتراب منه. ولكن ليس

---

(١) انظر فصل ٢

الانسان جزءاً من الله. ولا هو عنصر من عناصر وجوده تعالى. كذلك ليس العالم جزءاً من الله ، ولا مشاركا له في الحدوث والقدم

ولقد حسب انبياء اسرائيل العالم ،الذي وضعهم فيه الله،ميداناً يتعلّم فيه الانسان بالاختبار، وهم لم يقبلوا العالم قبولاً سلبياً بل حسبوه مكاناً يُكافح فيه الشرّ وينشط فيه الخير . ومواهب الانسان هي « الصَداق» ليفعل ما يريده الله منه، فيغلب بذلك ضعفه ويتحول قوة، وتستقيم رغائبه وميوله وترقى الى الاشياء السامية، حيث يفلت من التجربة والغواية. وما أبعد الفرق بين هذه الفكرة وبين نظرية «الكرما» والعالم الخيالي الوهمي في البوذية. ولقد آمن الانبياء ان الخير والشرّ اللذين يحلاّن بهم هما بمثابة فرص سانحة للخدمة تُؤدّى بالطاعة والرضا استجابة لدعوة الله ، ولا وجه فيها للاستحقاق الذاتي . وما كانوا ليستسيغوا قط فكرة تقول ان ما يحلُّ بهم في الحياة انما هو نتيجة أعمال وتصرفات وقعت في وجود سابق. ثم هم حسبوا هذا العالم ايضاً حقيقة خارج أنفسهم وذواتهم ، عيّنها الله العزيز الحكيم . أما النظرية التي تجعل العالم وهماً وخيالاً تخلقه رغبات الانسان فما كان لها عندهم أثر ، ولو أنها خطرت على بال أحد في يومهم لحسبوه اثماً وتجديفاً ، بله بطلاً وسخفاً .

وهذه الفكرة قد افترضها العهد الجديد فرضاً . وان حقيقة المسيح لتجعلها ألمع نوراً واكثر شمولاً في بساطتها العميقة . ولكن معانيها الجوهرية تتفق تماماً مع اعلان الانبياء. ويذهب العهد الجديد في تعليل أصل خطية الانسان الى أبعد مما ذهب اليه الفكر الاغريقي . فبينما ذهب الفكر الاغريقي الارستقراطي الى أن العقل هو جوهر الانسان،عارضه في هذا الفكر المسيحي

وذهب الى أن الإرادة الادبية هي مركز الدائرة. وليست الخطية في الانسان مجرد جهل ، ولا هي مجرد الانغماس في عالم مادّي زائل . انما هي معصية الانسان الذي خُلق ليحبّ الله ويفعل مشيئته طواعية واختياراً . ثم ان الفساد الذي في قلب الانسان ، الذي خُلق على صورة الله ، يُنظر اليه نظرة عميقة فاحصة . على أن المسيحيّة ليست ديناً ارستقراطياً ، ولذلك لا شيء في العالم عندها تعدل قيمته تلك النفس البشرية، مهما أوغلت في الجهل، ومهما وَهنت من الضعف والهزال .

* * *

وللبوذية نظام معين من حيث رجالها وخدّامها . ولقد عرفنا من قبل أن « غوتاما » ذهب الى أن الطريق الى النرفانا والحياة الروحية السامية لن يبلغها إلا أشخاص أفرزوا أنفسهم لهذا الغرض . ولذلك وضع رتبة للنسّاك المتزهدين .

وكان محتماً على من يريد الدخول الى إحدى رتب النظام الديني أن يستشير أولاً والديه . ويمكن قبوله في الثامنة من عمره . ولكنه لا يُرسم في وظيفته قبل العشرين. أما حفلة القبول فلا تخرج عن إجراء بعض الطقوس، وترداد بعض الألفاظ. ويُفرض على الناسك التبتل، ويحظر عليه الرقص والغناء والمسارح أو أخذ الفضة أو الذهب . ولا يأكل في اليوم إلا وجبة واحدة في الضحى . ويحمل في يده طبق الاحسان متنقلا من بيت الى آخر ، لا يقول كلمة لأحد ، ولا يؤثر الغني على الفقير عند طلب الاحسان .

وقد عاش أولئك النسّاك في الأديرة التي شُرع في تشييدها في زمن

« غوتاما »، نفسه وارتدوا الثوب الاصفر البسيط ، أما عملهم فكان ، علاوة على صيانة الأماكن المقدسة ، الدرس والتأمل .

وليس لدينا من تاريخ البوذية المتأخر إلا القليل من المعلومات — منها ان امبراطوراً شهيراً يدعى «اسوكا» بسط سلطانه على بلاد الهند كلها حوالي سنة ٢٥٠ ق . م . وشجع البوذية بكل قواه ، فكان لها كما كان الامبراطور قسطنطين للمسيحية .

وفي الشمال حادت البوذية عن أصولها،ونسي القوم انسانية بوذا،وأخذوا يبتكرون عدداً من الآلهة ذكوراً وأناثاً . واستحالت عقيدة بوذا القائمة على انكار وجود الله ، الى عقيدة تعدد الآلهة الوثنية . وهكذا اضطربت العقائد في الجنوب ، فبعدت كثيراً عن الاوضاع التي أرادها بوذا نفسه .

وأنكر بوذا الصلاة . ولكن أتباعه أخرجوا ما لم يبتدعه أي دين آخر ، ألا وهو الصلاة الآلية القائمة على مجرد التكرار الملّ. فكانوا ينقشون بعض الألفاظ السحرية على عجلات للصلاة يديرها الهواء أو قوة اندفاع الماء . وفي كل مرة تلف العجلة لفّتها ، وترتفع الكلمات المنقوشة نحو السماء ، تُردد صلاة هي مجرد تكرار . ولو كان بوذا نفسه حياً لانتفض خجلا من هذه الابتكارات الصبيانية .

كيف يكتمل هذا النقص في البوذية

وبعد هذا نرى كثيراً من الحق والخير في البوذية ، وكثيراً من السخف والحماقة. ونرى بوذا نفسه رجلا قد أحسّ بحاجة العالم،فقضى زمناً طويلا في

صمت وتفكير ، وعانى نزاعاً روحياً عقلياً ، وعاش حياة مجردة عن حب الذات ، نقياً ، طاهراً ، صبوراً ، رفيقاً .

ولكن ما أعظم الفارق بين صمته حيال بعض الامور الخطيرة ، و بين النور الوهاج الذي خلعته المسيحية عليها. فبوذا صمت ولم يذكر شيئاً عن الله. ولكن المسيح اقتاد البشرية الى الله الآب . وقد رأينا في البوذية المتأخرة ان القوم نسوا انسانية بوذا فاتخذوه معبوداً. وكل دين يقوم على افكار الله يعرض نفسه للانهيار . ذلك لان البشر لا يرضون نظاماً تنتفي فيه كل فكرة عن أصل الحياة ومنشئها ومصيرها. فاذا خلت السموات من ربها، بادر البشر على التو الى ملئها بآلهة من مبتكرات خيالهم . فهذا الفراغ الذي أحدثه بوذا بانكاره الله، تكمله المسيحية بالله الآب الذي أعلنه المسيح، الذي يجمع بين البشري والالهي في رابطة من المحبة لا تنفصم وشائجها .

وأفكارنا الصائبة عن الله تتبعها حتماً أفكار صائبة عن الانسان . فمن ناحية واحدة نرى « غوتاما » يرفع الانسان الى درجة سامية لا يدانيه فيها أحد . ولكنه من ناحية أخرى يخفضه إلى مرتبة وطيئة بنظرته المتشائمة في الحياة ، واقامته نظام التبتل والاستجداء ، وامتهان الجسد البشري . وما أعظم الفارق بين التأمل في الجسد « كجثة متعفنة سريعة العطب والفناء »، و بين « اعتباره هيكلا للروح القدس » ! فالحياة في نظر « غوتاما » شيء كريه ينبغي التخلص منه والطهر من أوزاره ، واما «النرفانا» فهي لا شيء للانسان العادي لأنه لن يقدر أن يبلغها ، وهي في جوهرها أشبه بالفناء . وانه لأنبل وأجدى أن نفكر في الشخصية البشرية وقد تطهرت وتهذبت

شهواتها وميولها ، من أن نفكر فيها وقد عدمت تلك الشهوات واندثرت . ومع احترامنا للناموس الأدبي الاخلاقي الذي وضعه بوذا ، وما ترتب عليه من نتائج الاحسان والاشفاق المتبادل بين أتباعه ، ينبغي ألاّ يغرب عن الاذهان أنه يقيم نوعاً سلبياً من أنواع الحياة . وهو لهذا عدوٌ التقدم والرقي. ومن هنا كانت البلدان التي سادها الفكر البوذي أقل البلاد سعياً في ميدان الحياة ، وأضعفها أثراً في اكتساب العالم الى ملكوت الله .

وإن قلنا ان البوذية تجد في المسيحية ما ينقصها من اعلان مظهر الله الآب ، واعلان حقيقة الانسان . فانها تجد فيها أيضاً رسالة الخلاص من الخطية . ذلك لأن البوذية تفرض قواعد صارمة لبلوغ «الكرما» . ويطغى على البوذية من جراء ذلك فكرة الناموس واستحقاق الشخص الذاتي . وبينما تقوم « الكرما » وازعاً الى الصلاح ومانعاً عن الخطأ ، فانها تولّد نوعاً من الفضائل يظنها المرء مكتسبة بجهوده الخاصة واذلال نفسه . وليس في البوذية أمل للنفس التي يشتد بها الصراع وتخور في العراك ، ولن تمتلىء النفس بفكرة متعمقة عن قداسة الحياة ، وشعور الحاجة الى قوة تسند وتعضد في الصراع ضد الخطية ، إلا متى تلاقت النفس وجهاً لوجه مع الله ، وانتفت فكرة « الاستحقاق » الذاتي ، وعمر القلب بفكرة الاتكال على صلاح الله وجوده . وهنا تشير المسيحية الى ناموس المحبة . وربما يمجّ البوذي اكثر من سواه كل تعليم عن كفارة المسيح مما لا يأتلف مع شعور العدالة. ولكن

حقيقة محبة الله الغافرة التي لا تتجاوز عن الخطية بل تحملها في نفسها ، توقظ في قلب البوذي الشعور بالخطية ، والحاجة الى اعادة الصلة المنقطعة مع الله .

ففي البوذية كثير مما يعبّد الطريق ويعدُّها لقبول المسيح . ومتى اخلص البوذيون لبوذا يصيرون الى المسيح اكثر اقتراباً . لأن النموذج الاخلاقي الذي وضعه بوذا لا يعلو عليه نموذج آخر في المبادىء التي وضعها أصحاب الأديان الاخرى ـ سوى المسيح . والفارق ان بوذا دعا الى ثقافة انسانية ، أما المسيح فقد أدخل حقيقة الله الى حياة بني الانسان .

٢

الهندوسية

(وهي دين الغالبية في بلاد الهند)

من ألذ البحوث وأمتعها في عالم الدرس، البحث في أديان الهند. والهندي بطبيعته انسان متدين يشغف بالروحانيات . ونحن اذا راقبنا عن كثب مفكريها وزهادها، وكيف يصارعون مشاكل الحياة والموت، و يسعون دائبين الى معرفة الله ، لا يسعنا الا الاعجاب بزهد الالوف والربوات من شعوبها وتقواهم وورعهم .

وفي بلاد الهند أديان كثيرة . ولكن الهندوسية (Hinduism) هي دين الغالبية . وليس لها مؤسس يمكن الرجوع اليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها . ولكنها دين التطور ، و بين ثناياها وثنية ساذجة ، وآراء فلسفية سامية ، وزهد صادق ـ كل هذه ممتزجة معاً بحيث يصعب الالمام بالدين كله جملة واحدة.

الكتب المقدسة : Vedas

في تاريخ بعيد يرجع الى سنة ١٥٠٠ ق . م . أخذ قسم من الجنس الآري يستوطن الأقاليم الغربية في بلاد الهند . وذهب قسم آخر الى بلاد فارس ، فكأنهم من السلالة عينها التي أنتجت أجناس الكلت والتيوتون والسلاف . أما دين أولئك المستوطنين الأولين فنجده في أناشيدهم المقدسة

Vedas . وآلهتهم هي الطبيعة والسماء وإله المطر وإله النار وما شاكلها .

والهندوسية دين فرح متهلل ، ويخيل الينا ان اتباعه يعيشون دائماً في ربيع العالم ، وآلهتهم ملتمعة براقة ، ويلتمس الاتباع منها أن يعيشوا مائة من السنين ، ومن ثمّ يترقبون الانطلاق للقاء أحبائهم في السماء .

وتقرب بعض أناشيدهم الى الوحدانية . ونرى في شكل إله السماء Varuna آثاراً لبداية الاعتقاد بفكرة إله أدبي ، التي كان يحتمل أن تتطور الى فكرة روحية رفيعة الشأن .

ويتجه الميل عندهم الى التفاضل بين آلهتهم المختلفة ، والتفكير في كلّ منها بدوره كأنه أسمى من غيره. وما تزال فكرة تعدد الآلهة هي الغالبة حتى اليوم في الهندوسية . ومع ان دين الكتب المقدسة vedas قد اندثر تماماً في بلاد الهند ، فان الكتب ذاتها ما برحت موفورة الكرامة تتلى بعض آياتها في العبادة والحفلات .

والكلمة veda تشير الى الكتب القديمة التي يرجع تاريخها الى ٨٠٠ ـ ٥٠٠ ق . م . وعنها تطور ونشأ العنصر الكهنوتي، وارتقت الناحية الفلسفية في الدين . ولم يلبث الدين الآري الساذج حتى استحال الى دين قوامه الذبائح والطقوس . ومما يقال إن الكتب البرهمية شملت من مصطلحات « الذبائح » اكثر مما جاء في كتب اليهود ، أو أية مؤلفات أخرى . وأما الطقوس،فوراءها رغبة التملص من الخطية والتصالح مع القوة السامية في الكون أينما كانت . ومع تطور فكرة الذبائح تطورت الفكرة عن الله ، فهو الآن في نظرهم جوهر الكون والحقيقة بأكملها ، السائدة كل الاشياء والمتداخلة في

كل الاشياء . والاسم الذي يطلق عادة على هذا الجوهر غير الشخصي هو « براهما Brahma » ، ويسمى أيضاً « Paramatma أو الذات السامية » . وليس لهذا الجوهر صفات، ولا يوصف إلا بالاوصاف السلبية ـ أي لا يقال عنه انه صالح أو عامل ، لأن هذه الافكار جامدة ومعينة وثابتة ، والروح اللانهائي يمسي محدوداً متى أطلقنا عليه هذه الأوصاف. والكلمة التي تطلق عادة على النفس البشرية Atma تدل على أن تلك النفس مقترنة ومتحدة بالذات السامية Paramatma ـ و « براهما » هذا ليس خالقاً ، فهو فكرة ذهنية اكثر منه ارادة عاملة. وانما يُظن انه خلق العالم على النحو الآتي: أخذ براهما يتأمل ويفكر ، وعن تفكيره هذا نشأت بذرة مخصبة ، تطورت الى بيضة ذهبية ، ومن تلك البيضة ولد براهما (مذكر) خالق كل الاشياء . وهذه الفكرة صعبة معقدة أمام عقل القارىء ، ولكن حسبنا أن نقول هنا إن جوهر الكون ـ الله ـ عندهم هو إله غير شخصي ، impersonal . ومع هذا البراهما « غير الشخصي » تقترن النفس البشرية وتتحد فيه.

وهذه الأفكار الدينية الفقهية مضمرة غير محدودة في كتبهم المقدسة القديمة ، ولكن المفكرين المتأخرين هم الذين صاغوها أفكاراً في نظام متلاصق . وما تزال هذه الكتب المقدسة المصدر القديم الذي يلجأ اليه المفكرون ورجال الدين .

نظام الطبقات :

ولا بد من كلمة هنا عن كيفية نشوء البراهمة وظهور الطبقات . فالبراهمة

كما يؤخذ من مدلول اسمهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الالهي . فهم كهنة الأمة لا تجوز الذبائح الا في حضرتهم وعلى أيديهم. وهم شعب مختار يقضون حياتهم تحت شروط صارمة وفي مظاهر عابسة . والحق ان تطور البراهمة قد استغرق أجيالاً طوالا ونشأ عنه مساوىء شنيعة ، ولكن لباب الفكرة هي انشاء كهنوت ملكي لا يتدنس بلمس الخلائق الوضيعة ، كهنوت مفروض عليه الحياة المقدسة الطاهرة .

والبراهمة هم أسمى الطبقات . أما الطبقات الاخرى فكانت في الاصل (المحاربين) و (التجار) و (الخدم) . وقد كان المحاربون أولاً أسمى الطبقات وأرقاها فحلّ البراهمة محلهم . ويرجع هذا التمايز بين الطبقات الى العصور السحيقة . ولعلّه راجع الى رغبة الغزاة الآريين القدماء في حفظ سلالتهم نقية ، فلا يدنسها الامتزاج بالسكان الوطنيين في بلاد الهند ، وهم جنس يختلف عن جنسهم ، أسمر منهم في اللون وأحط في درجة الرقي . والطبقات الثلاث العليا تمثل الأقسام الثلاثة الاصلية للهيئة الاجتماعية في عصورها الاولى. وأما الطبقة الدنيا فهم الخدم والأجرى في الهيئة . و بعد هذه الطبقة الدنيا يجيء المنبوذون في نظام الطبقات (outcastes) — وهم في الاصل فريق من سكان البلاد الأصليين حالت وضاعتهم دون اعتبارهم حتى بين الطبقة الدنيا من الخدم والأجراء . وقد قضت الهندوسية في عصورها المتأخرة أن يوكل الى البراهمة دون سواهم الوظائف الكهنوتية التي تفرضها الكتب المقدسة. وليس معنى هذا ان كل البراهمة منخرطون في سلك وظائف الكهنة، ولكن هذه الوظائف لا تعطى لغير رجالهم. ونظام الطبقات هذا بما انطوى عليه

من الحظر الديني في امتزاج الناس بعضهم ببعض ، والاحساس الحاد القوي بالميزة الاجتماعية واللونية، هو الرابطة التي تقوّي الوشائج بين الهندوس في الهند، وهو في الوقت نفسه الحائل القوي دون تقدم الهند ورقيها . فالانسان قد يولد فرداً في طبقته ، أو قد يولد منبوذاً من كل طبقة . وفي أحياء كثيرة يُعتبر مجرد لمس المنبوذ دنساً ورجساً في نظر آخر من أبناء الطبقات . وفي أحياء أخرى يلحق الدنس والرجس بالشخص اذا مرّ به المنبوذ على بعد بضعة أمتار. وفي كل مكان ترى قواعد صارمة تمنع المؤاكلة بين أبناء الطبقات المختلفة أو تناول طعام لمسته أيدي أحدهم. والخطر كل الخطر في مخالفة هذه القواعد. أما التزاوج بين الطبقات فقد حرِّم من زمن بعيد ، وما يزال هذا الحرمان قائماً في أشد أوضاعه .

والحق ان لنظام الطبقات في بلاد الهند على ما هو عليه من صرامة وجمود أبعد الأثر في حياة الشعب الهندي . فهو يقضي باقصاء خمسين مليوناً من المنبوذين عن الحياة العامة اقصاءً تاماً .. وهو ظلٌ قاتم يتبع المرء من يوم مولده الى يوم حتفه. فهو قد يفكر ماشاء له التفكير ، ولكنه يوم يعتدي على قواعد نظام الطبقات ، فقد أمسى لساعته طريداً محتقراً Pariah لا يُقام لوجوده وزن بين أسرته وأصدقائه والذين عاش فيما بينهم ، أمسى كلباً منبوذاً شارداً outcaste

تعاليم ثلاثة خطيرة : تجوال الروح ، الاعمال ، اللا نظام

وعلاوة على الكتب الهندية المقدسة وما احتوته من الاحكام والاناشيد،

فهناك فِكَر ثلاث تؤثر أعمق الأثر في العقلية الهندية ـ أولها فكرة تجوال الروح . فهم يعتقدون أن الأرواح جائلة متنقلة في أطوار شتى من الوجود . تنتقل من جسد الى آخر ، سواء أكان في الانسان أم الحيوان ، في طريقها الى هدفها الاخير. وهذه الفكرة التي تُعرف عادة بتناسخ الأرواح، والتي لها نظائر في كثير من بلدان أخرى ، متأصلة تأصلاً عميقاً في قلب الهند .

أما الفكرة الثانية فهي فكرة الاعمال (Karma) وهي متممة لفكرة تجوال الروح. وهي لا تعلل فقط حقيقة أدوار الميلاد المتكررة التي تتنقل فيها الروح، بل تبين أيضاً شرائط هذا الميلاد ، وما يستتبعها من عدم المساواة الصارخة في المصير البشري . وتقوم النظرية على أن كل عمل يأتيه الانسان له ثمرته حتماً ، وأن كل شيء يختبره الانسان في كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الاعمال التي يأتيها في الوجود السابق ، وهي بمثابة كفارة .

والكرما معناها العمل. وفي هذه الحالة العمل الذي لا بدّ منه في الحياة. فهناك ناموس جامد للعلة والمعلول، للعمل والجزاء. وقد عرف الهنود الآريون ـ كما عرف العبرانيون فيما بعد ـ ان الجزاء في هذه الحياة الحاضرة لا ينسجم مع العمل ولا يتكافأ معه . لذلك ابتكر الهنود نظرية تناسخ الأرواح لحلّ هذا الاشكال. فجسد الانسان وأخلاقه ومولده وثروته واختباره وسعادته وآلامه ـ هذه كلها جماع الجزاء الذي تستحقه أعماله التي أتاها في وجود سابق، صالحة كانت أو شريرة .

والأعمال التي يأتيها المرء في وجوده الحاضر ، صالحة كانت أو شريرة ، تهيء طوراً جديداً للتكفير والاستغفار . وكأن كل انسان مربوط الى عجلة

تدور دورات متتاليات لتقرير مصيره المحتوم في نهاية الأمر. وهو لا يقدر أن يوقف أو يبدل عملية هذا التطور والدوران المستمر ، ولا يمكن لأي انسان آخر أن يعينه في ذلك . ولناموس « تجوال الروح » الآن ـ أو على الاقل كان له من قبل ـ قيمة أدبية خاصة إذ ينطوي على مسئولية أدبية ، ولكنه يسلب الحياة معناها و يجردها من كل أمانيها الاجتماعية . فكل فضيلة ، وكل تضحية للذات ، يجب أن تتجه الى خدمة النفس وخيرها دون سواها. ثم ان فكرته في النظام الادبي لا تعدو حد العقوبة أو المثوبة ، أما فكرة افتداء النفس أو غفران آثامها فبعيدة عن هذا الناموس كل البعد . وكأن الله قد ربط كلاً منا الى عجلة دائرة تتناوبها الأفراح والأحزان ، ويبقى هو بعيداً عنها لا دخل له فيها .

ومن نقائص «الكرما» أيضاً أن الذاكرة لا تتخطى الثغرة القائمة بين وجود وآخر . وقد قيل ان هذا التعليم يعني « أن ما يزرعه الانسان إياه يحصد »، ولكن من المتعذر علينا حقاً أن نرى القيمة الادبية في عقاب يحل بحياة عن أعمال في حياة سابقة لها، إن لم يكن هناك شعور يقرن الحياتين معاً.

أما الفكرة الثالثة ، أو التعليم الثالث ، فهي فكرة الانطلاق ، وهي تمثل محاولة النفس الافلات من دورات تجوالها ونتائج أعمالها . فالحياة الشخصية في عرف القوم شرٌ وأسر وخداع. أما الحياة الحقة فهي استجلاء طلعة « براهما » التي لا تُكتسب إلا بالاندماج فيه، كما تندمج قطرة الماء في المحيط الخضم . وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج في الكائن الأسمى. وهذا الانطلاق لن يُكتسب بالاعمال، لان الاعمال الصالحة

تنتج ثمارها عن طريق الميلاد المتكرر ، كما تفعل الاعمال الشريرة تماماً . انما يجيء الانطلاق عن طريق الاستنارة الالهية . وقد أفسد هذا ما في « تجوال الروح» من القيمة الادبية.لان الاهمية معلّقة على فضائل التصوف والزهد، وليست على الاعمال الصالحة التي لا ينشأ عنها إلا ميلاد أفضل ووجود أرقى من الوجود السابق الذي كان عليه الانسان . وليس للأعمال الصالحة شأن في الانطلاق المروم . انما عن طريق التأمل والزهد تقف دورات الحياة ، و يبطل تطور الوجود ، و يتحد الانسان بالله .

مؤثرات البوذية

ثم ننتقل الى نواح أخرى : فمن سنة ٥٠٠ الى سنة ٢٠٠ ق. م . قامت البوذية في بلاد الهند وترعرعت. ولعلّ نهوضها في تلك الفترة من الزمن يرجع الى تمرد القوم على إجراءات رجال الكهنوت وسوء استعمال سلطتهم ، ولو أن هذا ليس من الامور المؤكدة على وجه التحقيق . ولم يُعنَ بوذا بالله ، انما عُني قبل كل شيء بطريق الحياة السويّ . والواقع أن ما تضمنته الهندوسية من فضائل ، كدعة النفس و بساطة الحياة والتواضع، ترجع في الاكثر الى مؤثرات بوذا . واليه أيضاً يرجع الفضل في إحترام حياة الحيوان ، فان فكرة الامتناع عن ذبح الأبقار وأكل لحمها التي يعتنقها كل هندوسي يرجع تاريخها على الارجح الى ذلك العصر البعيد من الزمن .

ظهور فكرة التجسد

وقد كان للاحتكاك بين البوذية والهندوسية أثر آخر على الاخيرة .

فان ما انطوت عليه البوذية من الإلحاد والآداب الباردة لا يُرضي الانسان العادي ولا يشبع شيئاً من حاجات نفسه الدينية . وكان هذا مع المؤثرات الأخرى حافزاً للهندوسية لأن تُخرج فكرة « المظاهر المتجسدة للآلهة incarnations ». وهي فكرة لم تظهر في الوجود إلا حوالي سنة ٥٠٠ ق. م. أي بعد غزو البوذية لبلاد الهند. وقامت هذه الفكرة على أن Vishnu الاله الحافظ و Siva الاله المدمّر — كوّنا بالاشتراك مع « براهما » ثالوثاً بدت مظاهره المتجسدة في أوضاع شتى . وكان من نتيجة ذلك ان عُبد Siva إله الدمار تحت اسمه وأسماء أخرى بالاشتراك مع زوجته Kali. وا كثر عبادة هذا الاله قائمة على البطر والفسق . ومع ذلك فقد نشأت في جنوب بلاد الهند جماعة عمدت الى كتابة مؤلفات خشوعية دينية حول اسم Siva هي أنبل ما أخرجته بلاد الهند من الكتب الدينية. أما الاله Vishnu فله مظاهر متجسدة كثيرة : أهمها في Rama و Krishna ـ وقد جاءت قصة Rama وزوجته في إحدى أقاصيص الهند الشعرية العريقة في القدم . وأما المظهر المتجسد الآخر Krishna فقد جاءت روايته في قصة شعرية أخرى يعجب بها الهندوس أيما إعجاب ، ويعدُّونها « جنّة رائعة قد نضجت ثمارها اللذيذة وأينعت أزهارها الفيّاحة ، ترويها ينابيع دائمة على مدار السنة » .

وفي أواخر تلك الفترة من الزمن ظهرت مؤلفات اصطبغ فيها « كرشنا » بألوان مختلفة. وهو في تلك المؤلفات المظهر المتجسد للشهوة . وكان لأقاصيص غرامه أعمق الأثر في إفساد حياة الملايين في بلاد الهند. وهذا مثَل على فساد فكرة التجسد عند القوم. فقد كانت سلاحاً خطراً، وحول أبطالها ومظاهرها

صنّف الناس أقاصيص شتى صالحة وشريرة على السواء . أما الحق التاريخي فقلّما أعاره القوم شيئاً من عنايتهم . وكان من جراء ذلك أن اندمج في سجلّ الآلهة عدد لا حصر له من صغار الآلهة تتفاوت أقـدارهم الادبية . فأخذت الهندوسية في التدهور والانحطاط .

وفي الهندوسية الحديثة نهضتان بارزتان . أولهما تعاليم (Vedanta). فانه في الخمس مائة سنة ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ ب . م . لم يُعرف إلا القليل عن تاريخ الهندوسية . ولـكن ظهر في القرن التاسع زعيم ديني يدعى «سنكاراشا» ، فنادى بما ظنه المبادىء الطاهرة النقية المنطوية تحت الأناشيد الدينية التي تضمنتها كتبهم المقدسة Veda ، واطلق على نظامه اسم Vedanta ، وهي الفلسفة التي يشغف بها الهندي المثقف في هذا العصر . وبراهما في نظر هذا الزعيم هو الحق ، والانفس المفردة واحدة فيه . فاذا ما فرغت سلسلة التوالد، وأبطلت الروح تجوالها من وجود الى آخر، اندمجت في براهما وصارت واحداً فيه . و يضيف الزعيم الى ذلك أن الكون ليس حقيقة غامضة مبهمة وحسب. بل هو وهم وخداع وطيف زائل. وأنفس الافراد مندمجة في الحقيقة مع براهما . وهذا الطيف الزائل ، أي العالم ، هو الحجاب الوحيد الذي يحول دون تحقيق هذا الاندماج وتوحيد الذاتية . والخلاص يجيء عن طريق هدم هذا الحجاب، وتبديد هذا الخداع المضلل والطيف الزائل.وقد تملـكت هذه الفلسفة من عقل الهندوسي واحتلت هذه الفكرة ـ فكرة وهمية الكون وزواله ـ مكانة سامية في تفكير الهنود بحيث أضحت تسير جنباً الى جنب مع التعاليم الثلاثة الاخرى وهي: تجوال الروح ـ وتأثير الاعمال ـ وانطلاق النفس أخيراً.

وأما النهضة الثانية فهي فلسفة الخشوع والتعبد Bhakti التي ظهرت في الفترة ما بين ١٤٠٠ و ١٨٠٠ ب . م . وتقترن بأسماء ثلاثة من كبار الزعماء الذين أسسوا مذاهب السكّيين وغيرهم . وهم قد أدخلوا الى الفلسفة الهندوسية التي تدين بكائن اسمى غير شخصي، لا ذات مستقلة له – فكرة الاله الشخصي الذي يليق له التعبد والخشوع . ولعلهم تأثروا في ذلك بالآراء الاسلامية التي كانت قد ظهرت في الهند في ذلك العصر . ونبغ بين دعاة هذه الفلسفة قديسون أظهرهم « تولسي داس » الذي عاش في القرن السادس عشر، والذي نقل الأقاصيص الدينية المقدسة الى لغة عامة الشعب، فتناولتها العامة وراحت تنشدها في قرى الهند ، وتتلوها في كل مكان ، وتمثّلها في الأعياد والمواسم .

وكان اولئك القديسون ، بما ادخلوا على الديانة الهندوسية من فكرة الاله الشخصي الذي يليق له التعبد والخشوع، اسمى مَن مثّلوا فكرة الايمان بالله في بلاد الهند ، وهم ينتمون الى طبقات مختلفة ، وكثيرون منهم من عامة الشعب، فبينهم النساجون وصانعو الفخار الذين خلوا من المواهب سوى الالهام الديني . وكان بعضهم من المصلحين حقاً الذين نبذوا الاوثان وفوارق الطبقات ومجرد الطقوس الظاهرية، وأحسّوا بوجود الله احساساً غريباً. وهم قد آمنوا بالله سام ولو أنهم في بعض الاحيان قد أخرجوا افكاراً غشيمة فجّة، وعزوا بعض الافكار الروحية المتعلقة بالله الى أشباح ورموز غير لائقة .

ولقد أصرّ اولئك القديسون المتعبدون Bhakti على النعمة التي قد تكون تمهيداً لتعليم أعمق وأرقى . على انه ينبغي ان نعلم ان الخلاص أو «الاطلاق» الذي تكلم عنه القديسون والحكماء – حتى في دين جماعة ال Bhakti —

انصرف فقط الى الخلاص من سحر العالم وغوايته ، ومن تعذيب دورات الولادة المتكررة ، ومن التجوال الذي لا نهاية له من وجود الى وجود بعده.

دين المنبوذين

ومن المؤلم حقاً انه في كل هذه الأدوار التي أخصبت الافكار والممارسات الهندوسية لم يكن للمنبوذين Outcastes ثمة نصيب . وقد يكون مثاراً للنزاع أن نعدّهم طائفة من طوائف الهندوسيين . فانه لا تشابه بين دينهم وبين العقائد التي شرحناها ، فدينهم في مجموعه أشبه بعبادة الارواح التي اعتصمت بها الاقوام الفطرية الساذجة . وأعظم الآلهة في قرية المنبوذين ليس « سيفاً Siva » ولا «فشنو Vishnu » ، بل ربما كومة من الآجرّ تمثل أم القرية أو شيطانها ، الذي يمنح الخصب للعواقر ، ويحمي المحصول من الآفات ، ويرعى القرية برعايته وعنايته . وقد يكون للمنبوذ فكرة غامضة مبهمة عن كائن سام عظيم ، ولكنه الى جانب ذلك يؤمن بجملة من الأرواح الشريرة . وحالته الاجتماعية الدينية في أحط الدركات ، والهندوسية المحافظة لا تُعنى به شيئاً .

جهود المصلحين

وفي السنوات الاخيرة بُذلت الجهود المتوالية لرفع شأن اولئك المنبوذين وتحسين حالتهم السيئة . ونهضت جماعات في بلاد الهند للاصلاح ارتضت قبول المنبوذين في عضويتها رغبة في تطهير الهندوسية من هذه اللوثة اللاصقة بها، والقضاء على فكرة التمييز بين الطبقات .

وبين تلك الجماعات Brahma Samaj وهي طائفة تؤمن بالله . ووجهة نظرها في الله وفي يسوع المسيح أشبه بوجهة نظر مَن نسميهم « موحدين Unitarians » . وهي تكاد تكون منفصلة عن الهندوسية الأصلية ، قليلة العدد، يعوزها العزم والقوة، ولكنها أدت بعض الخدمات النافعة الى طوائف المنبوذين. وأمثال هذه جماعات أخرى نهضت لمكافحة هذه السيئة الاجتماعية، وهي حين تصدر عن الهندوسيين المحافظين، يكون الباعث اليها الحسد والغيرة من المرسليات المسيحية، التي تعمل ناشطة لرفع شأن أولئك المنبوذين واكتسابهم الى أحضان المسيحية التي تقدس الشخصية البشرية مهما كانت وضيعة. ومع ان الضمير الهندوسي المثقف قد أدرك ما في نظام الطبقات من سوء وشناعة، فانه لم يفعل حتى الآن شيئاً جدياً للخروج عن تلك التقاليد الجامدة التي أحكم المحافظون الرجعيون حياكتها حول أولئك المنبوذين التاعسين الذين يبلغ عددهم خمسين مليوناً .

الخلاصة

ونستخلص من هذا البحث ان الديانة الهندوسية تشمل طرائق دينية كثيرة منفصلة بعضها عن بعض ، وهي ذات معان متعددة مختلفة . ويمكن تلخيصها فيما يلي :

يُحسب الهندوسي هندوسياً متى ولد في طبقة من الطبقات المعروفة وحافظ على تقاليدها وقواعدها، ولو ان كثيرين من المثقفين يعتدون على هذه القواعد الوضعية ويتملصون منها . ويؤمن الهندوسي بنظام الطبقات، ويحترم أسفاره

المقدسة Vedas و يوقر البراهمة . ثم يحسب البقرة مقدسة ، وتتسلط على عقله معتقدات تناسخ الارواح ، وانطلاق النفس أخيراً من قيود هذا التجوال وآثار أعماله صالحة كانت أو شريرة ، ثم يميل به الرأي الى مذهب الحلول الالهي في الطبيعة. وهو ان كان مثقفاً مهذباً فهو ينكر تعدد الآلهة ولا يؤمن بها. وان كان وطنياً متحمساً ومن رجال أحزاب الاصلاح فهو يرتاب كثيراً في صحة نظام الطبقات. وان كان برهمياً ، فهو يؤمن بالاوضاع الأولى للديانة الهندوسية و يحفظ الطقوس والمراسم القديمة، و يعبد الاله « سيفا » أو الاله « فشنو » ، و يدرس الاسفار المقدسة أو بعض المذاهب الفلسفية الهندوسية. وأما ان كان قروياً عاديا ، فيحفظ الطقوس و يعبد « راما » أو « كرشنا » أو «سيفا » أو الاله القرد أو زوجة الاله سيفا . وان كان منبوذاً فإلهه شيطان القرية .

وللهندوسية أوضاع شتى تتفاوت بين فلسفة الحلول الالهي في الطبيعة، ثم تأخذ في الانحدار حتى تصل الى عبادة الأرواح الشريرة . ومن الصعب جداً التمييز بين هذه الأوضاع المتفاوتة. ولعلنا نقرب الى الصواب إذا قلنا ان أقوى العوامل تأثيراً في الهندوسيين من أعلى الطبقات الى أدناها هي :

(١) نظام الطبقات .
(٢) الفكرة بأن الله هو الحق الوحيد .
(٣) الفكرة بأن العالم وهم وخداع وتضليل .
(٤) ثم الفكرة المثلثة عن الاعمال (الكارما)، وتناسخ الارواح، وانطلاق النفس واندماجها في الكائن الاسمى .

أية فكرة عن الله تشبع قلب الهندوسي ؟

و بعدُ ، ما الرسالة المسيحية لأمثال هؤلاء القوم ؟

انها قبل كل شيء تحمل اليهم رسالة الله. لانه وحده دون سواه مستطيع أن يشبع قلب الهندوسي التائق . وقد عرفنا من بحثنا في طرائق التفكير الهندوسية عن الله أن للقوم اتجاهين . الاول التفكير في الله إلهاً مجرداً عن الشخصية. هو روح العالم، وهو الحق الوحيد الجاثم وراء خداع و بطلان هذا الوجود العالمي والاتجاه الثاني تصوُّر الله في أشباح متجسدة مثل راما و كرشنا وما أشبه . فالاتجاه الاول يحتفظ بسمو الله وصفاته الجامعة، ولكنه لا يعطي القوم إلهاً يرفعون اليه الصلاة . والاتجاه الثاني يشبع رغبات الانسان من حيث تعيين صفات الله وتحديدها، ولكنه يفقد معالم صفات الله الجامعة المطلقة. ولهذين الاتجاهين آثار ظاهرة في حياة الهنود كما نشاهدها في هذا العصر . والذي يرومه الهندوسي وتتوق اليه نفسه الجائعة لن يجده إلا في الله المعلن في المسيح . إذ تحمل اليه الرسالة المسيحية إلهاً جامعاً سامياً ، هو صانع الكون والحالُّ فيه . وهو فوق ذلك معلن في التاريخ البشري ، وفي وجه بشري — إلهاً هو المحبة .

الغفران

ويجيء الايمان الصحيح في الله بشيء آخر تفتقر اليه بلاد الهند، وهو الشعور بالخطية والحاجة الى الغفران. ولا يعوز بلاد الهند الحنين الى الافتداء، ولكنه عندهم افتداء من ضيقات هذا العالم الحاضر وويلاته، افتداء من خداع

الحياة وأباطيلها التي تحجب عن الأنظار وجه الكائن الاسمى . فهي لا تروم الفداء من بطش الخطية وسطوتها،ولن يمكنها أن تفعل ذلك . وهي تترنح بين إله مجرد عن الشخصية ، وآلهة محدودة القوى ناقصة في الكمالات الأدبية . والذي تفتقر اليه الهند رؤيا الله القدوس ، الذي تعلو قداسته فوق كل المعايير البشرية. وقد تأصلت في نفسها بفضل عقيدة « الكارما » الفكرة بأن كل عمل يأتيه الفرد ينتج أثره ، وان الخطية تنال عقابها بموجب ناموس جامد لا هوادة فيه . ولم تنهض قط الى إدراك فكرة الغفران، لا الغفران الذي يتجاوز عن الشر في تراخ و إحساس بليد ، بل الغفران الذي يحمل الخطايا الى قلب « الله » ذاته .

مبدأ الإخاء

ومن الهبات التي يمكن أن تفوز بها الهند من المسيحية روح الأخاء . وهين أن نقول إنّ الغرب لا يبدي للملأ شيئاً من آثار المسيحية من هذه الناحية. وعلى الرغم من هذا فانا لا ننسى أن المسيحية قد ألغت الرق. وحيثما تذهب المسيحية ويكون الايمان بالمسيح حقاً ، وفعلاً ، لا يسع أتباعها إلا أن يشعروا أن المسيح قد جعل الكل واحداً . ولن يقول مكابر ان في المسيحية شيئاً من هذا التمييز بين الطبقات.لان مثل هذا النظام يدعو الى أخاء محدود بقيود وأحكام ، يقتصر على أفراد الطبقة الواحدة أو الطائفة الواحدة كما تفعل بعض الأديان الاخرى ، أما في المسيحية فالأخاء رابطة جامعة شاملة . ولهذا نرى المنبوذين الانجاس في بلاد الهند يهرعون الى الكنيسة المسيحية جماعات

وزرافات بحيث يتعذر على المرسلين هناك تلبية كل الطلبات. والمصلحون من الهندوسيين يعترفون بهذا الفضل للمسيحية. فقد قال « رام موهن روي » الشهير، وهو صاحب الفضل في إبطال عادة إحراق الارملة مع بعلها المتوفي : « لقد تبين لي من البحوث الطويلة الدقيقة في الاديان أن تعاليم المسيح اكثر انطباقاً على المبادىء الادبية، واكثر ملاءمة للخلائق العاقلة من أي تعاليم أخرى ».

الدين العملي

وأخيراً نشير الى عنصر له شأنه في رسالة المسيحية بالنسبة للهند. ذلك أن الايمان بالمسيح ينتشل الهند من ربقة التشاؤم من العالم الحاضر ويعينها على أن تظفر بقداسة وخلاص عمليين بكل معنى الكلمة. ولسنا ننكر أن الهند تدرك حقيقة العالم الروحي، ولكنها استنامت الى خلاص هو الانطلاق من عالم مضن مُنهك. وليس ملكوت الله في نظرهم نتيجة جهود الانسان وأعماله، فلا شأن للهندي بالمبادىء الدينية ذات الصبغة العملية. أما الحياة في نظر المسيحي فهي الميدان الذي تكمل فيه إرادة الله، وممالك الارض ستكون يوماً ملك الله ومسيحه. وفي التلمذة المسيحية جهد فائز، وقوة نابضة، وانتظار عملي. وسيأتي يوم يجد فيه التائقون الى الانطلاق خلاص نفوسهم الحقيقي في المسيح، وفي خدمته في عالم البشر.

٣

الكنفوشية

وغيرها من أديان بلاد الصين

يختلف شعب الصين اختلافاً بيناً عن شعب الهند . فالهندي يمتاز بالانغماس في الاشياء الروحية، والايقان في طبيعة العالم الزائلة المتقلبة. والتفكير العميق في الله. أما الصيني فبحسب طبيعته لا يهتم إلا قليلاً في هذه الشئون. وفي بلاد الصين يقطن شعب بقي مدى الأجيال في عزلة عن العالم ، من فجر التاريخ الى هذا العصر الحديث ، وكان لهذه العزلة أثرها في تكوين أخلاق قومية بارزة وشعب ذي طبع عملي قليل المبالاة ، فخور بتاريخه الاجتماعي والقومي ونظمه الخاصة . وقد كانت الصين في فنون الحضارة في مقدمة أمم العالم . والآن ، وقد شهدت مؤخراً آثار علوم الغرب وثقافته بعد أن تخطت حدودها القديمة، فانها تدأب بعزم متوثب وهمة فتية في اقتباس تلك القوة والمؤثرات التي اعتز بها الغرب.والذين يعيشون من الأجانب في ربوع تلك البلاد من مرسلين وموظفين اداريين وتجار يعجبون أيما اعجاب بما يرونه من مقدرة ومتانة أخلاق ذلك الشعب العظيم . ولا يقل اعجابهم هذا بسبب ما يشهدون من الفوضى والاضطراب .اللذين أعاقا تقدم البلاد في اكمال حقها من الديمقراطية السياسية.

الدين في بلاد الصين

ما دين الصين ؟ ليست الاجابة على هذا السؤال هينة. ففي تلك البلاد أديان ثلاثة الكنفوشية والبوذية والتاوزمية . وليس مستطاعاً أن نقول ان بعض أهليها كنفوشيون والبعض الآخر بوذيون وغيرهم تاوزميون ، كما نقول مثلاً ان سكان الهند بعضهم هندوسيون و بعضهم مسلمون، ذلك لان الصيني قد يكون كنفوشياً و بوذياً وتاوزمياً في وقت واحد ! يضاف الى هذا ان الكنفوشية هي في الحقيقة اسم على نظام ديني قبل أن يظهر كنفوشيوس في الوجود بأجيال كثيرة. وليس للتاوزمية علاقة بالفلسفة التي نادى بها مؤسسها. والطريقة الممكنة التي نختطها الآن هي أن نصف كلاً من هذه الأديان وصفاً موجزاً ، ثم نستجمع العناصر الأصلية في الآراء الدينية العملية التي يعتنقها الصيني العادي .

كنفوشيوس

هو مفتاح الدين الصيني . والواقع انه لم يبتكر الكثير مما يُنسب اليه ، وهو ليس قوة دينية شخصية . وانما قد تمثلت في حياته وكتاباته وجهة النظر الصينية العادية في الحياة والدين . كنفوشيوس هو المثال الذي يحتذيه الرجل الصيني في أسمى أوضاعه . وله في نفوس القوم مكانة التوقير والاحترام و يتخذونه نموذجهم الكامل .

ولد سنة ٥٥١ ق . م . وكان أبوه ضابطاً حربياً ممتازاً من سلالة عريقة توفى ولمّا يبلغ ولده الثالثة من العمر، وخلف أسرته في فقر. وقد انصرف الغلام

كنفوشيوس منذ حداثته الى الدرس والبحث، وخصوصاً درس آداب القدماء. ولما بلغ أشده عين في وظيفة حكومية وأخذ يتقلب في المناصب بكفاية نادرة. وكان في خلال تلك السنوات يفكر تفكيراً عميقاً في أحوال بلاده، ويكون فلسفته الاجتماعية والسياسية. وفي نهاية الأمر هجر وظيفته الحكومية وانقطع الى وظيفة التعليم. فأقبل نفر من الشباب من كل رقاع وطنه وجلسوا عند قدميه لينهلوا من معين حكمته. ولم يلبث طويلاً حتى ذاع صيته وعلا شأنه. وكان تلاميذه من العلماء المبرزين ونظروا الى كنفوشيوس نظرة اكبار واحترام تكاد تفوق عبادة الابطال الافذاذ. وفي هذا وحده دليل على علو كعبه في التعليم والحكمة. وبلغ صيته مسمع الملك والحاكم في «شو»، فدعاه الى مجلسه فلبى دعوته مغبوطاً لما كان للأسرة المالكة من الكرامة والحب في أعين الشعب. ويقال انه عند زيارته لعاصمة ملكه التقى بالفيلسوف «لاوتز»، فبهره هذا على اعتداده بنفسه ودعواه أن في طوقه اصلاح العالم بتعاليمه. وبعد أن قضى سنوات في تعليم تلاميذه، والدرس والبحث، وتأليف أسفار في الآداب القومية القديمة، عينه أحد النبلاء ويدعى «لو» في وظيفة رئيس القضاة بالمدينة. ثم انتقل منها الى رئيس الوزراء، على أن يباح له تنفيذ آراءه في مقاطعة لو. ويقول تلاميذه انه أصاب في ذلك فوزاً مبيناً، «فالجرائم اختفت. وكان الشيء اذا سقط في الطريق لا يلتقطه أحد. وصنعت صناديق الموتى من ثخانة عادية. وبطل تمييز القبور باقامة المتاريس عليها. وحددت أسعار واحدة في الاسواق». ولكن منافسيه أوقعوا بينه وبين الحاكم وراحوا يتزلفون الى هذا الحاكم بتقديم الهدايا من نساء جميلات وعمائر ضخمة، فحولوا

عقله وفكره عن الأخذ بنصائح كنفوشيوس الحكيم، فاضطر هذا الى اعتزال وظيفته. ولم يوضع قط فيما بعد في موضع القوة والنفوذ. ومما يذكر له بالفخر انه لم يسعَ الى ذلك يوماً ولم يحدْ قيد أنملة عما اعتقده حقاً ليرضي الشعور العام، فكرس بقية حياته في تعليم تلاميذه ودراسته الآداب القديمة التي أكمل أسفارها قبيل أواخر حياته، وخلفها تراثاً مذخوراً لبلاده. وتوفى سنة ٤٧٨ ق.م.

عبادة شنغتاي

وقبل الخوض في نظم كنفوشيوس لا ندحة لنا عن الرجوع أولاً الى دين بلاد الصين قبل عصره: كان دينهم قائماً على ثلاثة أوضاع: عبادة شنغتاي الاله الاسمى، وعبادة الاسلاف، وعبادة الارواح. ففي عبادة « شنغتاي » نرى مُثلاً روحية سامية. والى القارىء بعض العبارات المقتبسة عن الصلوات التي كانوا يرفعونها الى « شنغتاي » ربهم في فصل الصيف وفصل الشتاء، حين كان يتقدم اليه الامبراطور كرئيس كهنة نيابة عن الشعب:

« اليك أيها الصانع العظيم يتجه فكري.. وأنا عبدك لست إلا قصبة مرضوضة ونبتة هزيلة. قلبي قلب نملة حقيرة. ومع ذلك فقد نلت لديك شرفاً وحظوة إذ جعلتني حاكماً لهذه الامبراطورية. وها أنا اعترف بجهلي وعمى قلبي. وأخشى أن اكون غير أهل لهذه النعم الوافرة. فهبني أن أراعي في وقار الشرائع والأحكام، باذلاً جهدي، على الرغم من صغر شأني، لأن أقوم بواجبي بولاء واخلاص. وعن بعد أتطلع الى مقامك السماوي، فتعال في مركبتك الفاخرة الى هذا المذبح. وها أنا خادمك أعفر وجهي في التراب

متوقعاً جزيل نعمتك . . . لترضى بأن تقبل تقدماتنا ، وترمقنا بعينيك حين نعبدك ، ياذا الصلاح غير المتناهي » .

وهذا الضرب من العبادة يرجع تاريخها الى العصور الأولى في التاريخ الصيني . فمنذ فجر التاريخ كان وراء جميع الممارسات والاجراءآت الدينية التي مارسها الصينيون ، تلك العقيدة العظمى عن إله سام عظيم ، عقيدة أحيطت في بعض الاحايين بسجف من الغموض والابهام ، ولم تظهر ثمارها في الحياة القومية ولـكنها لم تبرح قط عن الاذهان . ويطلق على « شنغتاي » هذا (أو الاله المتعالي) في مصطلحات الآداب القديمة لقب « تيان » أو السماء . وهذا هو اللقب الذي شغف به كنفوشيوس نفسه ، وجرى على التحدث به كثيراً . وخليق بنا أن نعير التفاتاً الى طريقة الخطاب التي جرى عليها كنفوشيوس لاله تنقصه عناصر الشخصية . ولعل نفوذه هو صاحب الفضل في بقاء فـكرة الاله العلي المتسامي مجرداً عن الشخصية .

وكان للامبراطور وحده حق عبادة شنغتاي — نائباً عن شعبه — فأدى هذا ايضاً بطبيعة الحال الى ابعاد فكرة الالهيّة السامية عن محيط العبادة العملية .

عبادة الارواح

لم تغب عبادة الأرواح قط عن بلاد الصين ولم تنفصل أبداً عن أسمى ما فيها من تعبد . فالى جانب عبادة الامبراطور للاله شنغتاي ، ترى لوحات تمثل الامبراطرة السابقين ، ولوحات غيرها تمثل الشمس والقمر والنجوم والغيوم والامطار والرياح والرعود ، موضوعة الى جانب لوحة الاله العظيم

وفي مقام منخفض عنها. وان في قبول آلهة أخرى على هذا النحو، ولو كانت خاضعة للاله الاسمى وأقل منه شأناً، لانحداراً الى الوثنية. والواقع ان الكنفوشية منذ ان توفى زعيمها مالت الى ضروب شتى من الوثنية، ولو انها في الظاهر و بالاسم فقط تعيب الوثنية وتنعيها. والى جانب الأرواح التي ذكرنا ظهر عدد غفير من الآلهة ذكوراً وأناثاً ومجموعة أخرى من مبتكرات وأفانين عامة الشعب.

عبادة الاسلاف

وأهم من عبادة الارواح عبادة الاسلاف. يقول كثيرون ان هذا هو الدين الحقيقي لشعب الصين. ويرجع تاريخه الى العصور الخوالي، وما زال شائعاً مألوفاً حتى هذا العصر. وليس يحرص الصيني على شيء حرصه على هذه العبادة، فأنت قد يُباح لك أن توجه الملام الى أي شيء في الصين. أما أن تمس عبادة الاسلاف بسوء، فهذا ما لا يرضاه الصيني و يصدك عنه في جفاء. والارجح ان هذه العبادة بدأت أولاً ضرباً من ضروب التكريم للميت بعد الوفاة، ثم استحالت الى عبادة الابطال الحكماء من رجال الشعب. وأخذت العادة تنتشر بين القبائل والأسر تغذوها روابط الأسرة في بلاد الصين، وهي قوية بطبيعتها في تلك البلاد، حتى أصبح كل الاسلاف موضع التوقير والعبادة من الجميع على السواء.

واللوحة المستعملة في عبادة الاسلاف هي عادة «لوحة صغيرة من الخشب يبلغ علوها ثماني بوصات وعرضها بضع بوصات ينقش على وجهها اسم الشخص

الذي تمثله ». وتحفظ هذه اللوحة في دار الآسرة مدى حياة جيل أو اثنين من أجيال الاحياء عقب انتقال المتوفي ، ثم تنقل بعد ذلك الى هيكل أسلاف القبيلة أو الاسرة . ومن حين الى آخر تقدم الى هذه اللوحة التقدمات ، وخصوصاً في عيد ميلاد المتوفي أو يوم ذكرى موته من كل سنة. ويقول الجيل النابت في معرض الحديث عن المتوفين : « آباءنا وأمهاتنا » أو « أجدادنا وجداتنا » . ولهذا النظام أثر بارز في تقوية نفوذ الأسرة أو القبيلة على الفرد بحيث يعسر عليه جداً الخروج على التقاليد والعادات المرعية . وانه ليصعب على المرء أن يدرك المدى الذي يذهب اليه الصيني في عبادة أرواح أسلافه وما تنطوي عليه تلك العبادة من عطف وولاء . وفي أغلب الاحيان تمتزج هذه العبادة بكثير من العطف والحب الخالص للمتوفين، وفي أحيان يخالطها الخوف مما تفعله تلك الارواح لو لم يعبدها اللاحقون ، وفي أحيان أخرى ليست إلا مجرد طقوس وممارسات وضعية جرى عليها العرف والعادة .

هذه هي الخيوط الثلاثة التي يتكون منها نسيج الدين في بلاد الصين : عبادة شنغتاي ، وعبادة الاسلاف ، وعبادة الارواح .

العلاقات الخمس

يقال ان كلمة واحدة ـ يشار اليها في اللغة الصينية بحرف واحد ـ هي التي تلخص كل تعاليم كنفوشيوس ، وهي لفظة « التبادل » ، إذ يقول ان جوهر الحياة الصالحة، للفرد وللأمة، يقوم على حسن أداء الفرد لواجبه ورعايته للروابط التي تربط الناس بعضهم ببعض. وعندهم علاقات رئيسية خمس: علاقة

الأمير بالرعية ، وعلاقة الأب بالابن ، وعلاقة الأخ الاكبر بأخيه الأصغر ، وعلاقة الزوج بزوجه ، وعلاقة الصديق بصديقه . فان روعيت كل هـذه العلاقات حسُن حال الدولة .

التقوى البنوية

على انهم يعلقون أهمية كبرى على الرابطة البنوية، وهي في بلاد الصين أشد القوى الادبية، فان الرجل قد يذبح ابنه ولا يُعتبر في فعلته إلا متطرفاً في استخدام الحقوق الابوية. أما إذ قتل الابن أباه ، فهذه جريمة فظيعة يُعاقب عليها القانون بأقصى صنوف التعذيب . ويقال بالاجماع ان التشدد في رعاية هذه الرابطة كان لخير البلاد ، انما هذه الفضيلة في نظرنا ذات ناحية واحدة ، وليس ما يقابلها في واجبات الآباء نحو أبنائهم . وقد يفرطون في رعاية هذه الحقوق افراطاً سخيفاً ، مثال ذلك ما رُوي عن أحدهم من أنه « كان يخشى أن يدرك أبواه حقيقة تقدمه في الايام وبلوغه سن السبعين فيرهبا شيخوخته . لذلك كان يرتدي ثياب الاطفال ، ويطفر أمام والديه كصبي صغير » .

الدولة

وقد دارت تعاليم كنفوشيوس الادبية في أساسها حول الدولة وعلاقة أبنائها بها ، والصفات التي ينبغي أن تتوافر في مليكها وحاكمها . فاذا صلح حال الامبراطور صلح حال الدولة والشعب . ولقـد استمد مبادئه الأدبية ومُوحياته من تاريخ السلف . وأراد أن يوطد حياة الأمة على تلك المبادىء

التي أثبت التاريخ الماضي صلاحيتها . أما عن ضمير الفرد وعلاقته بالله ، فلم يقل إلا القليل .

وكان اهتمام كنفوشيوس متجهاً في أصوله الى علاقة الانسان بالانسان . أما عن العلاقة بين الله والانسان فالظاهر أنه لم يعبأ بها كثيراً . وسلّم بعبادة الاله « شنغتاي » القديمة ، وكذا عبادة الاسلاف ، وأباح شيئاً من عبادة الارواح لغرض الثقافة الرسمية العامة. ولكن عقله الكبير المفكر أمتهن هذه العبادة جملة واحدة ، وخيّل اليه أن عبادة القوى غير المنظورة من الامور غير الضرورية إذا قيست بمهام الانسان الاخرى . ومن أقواله : « لم نقدر حتى الآن أن نؤدي واجباتنا نحو الانسان، فكيف نؤديها نحو الارواح ؟ » . أما عن الحياة بعد الموت فأبى أن يصرح بشيء. والحق أننا مسوقون الى الاعجاب باخلاص ذلك الرجل ونزاهة عقله ، لانه يأبى الخوض في أمور لا يدريها . وبينا نأسف لان آدابه « لم تتأثر بالعاطفة »، فاننا نقرّ أن موقفه «اللاأدري» كان بمثابة احتجاج ضد عبادة الارواح الفاسدة ، ولعب دوراً نافعاً في تاريخ أمته الديني .

تعاليمه الادبية

ولقد بلغ كنفوشيوس في تعاليمه مستوى اخلاقياً رفيعاً كان له أبلغ الاثر في حياة بلاد الصين والى القارىء بعض أقواله :

« أليس رجلاً فاضلاً ذاك الذي لا يشعر بانزعاج حين يغضّ الناس الطرف عنه ؟ » .

« اجعلوا الامانة والاخلاص من المبادىء الاولى »

« ان الرجل الفاضل في كل شيء يحسب البرّ من الضرورات »

وقد وضع القاعدة الذهبية في صيغة السلب .

« لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يُفعل بك »

وحين سمع أن « لاوتز » قال : « جازوا الشر بالخير » ـ حار في أمره وقال : « جازوا الشر بالخير ! إذاً بماذا نجازي الخير ؟ جازوا الاذى بالعدل ، والخير بالخير». وربما كان هذا نقصاً أدبياً في نظامه. فان فضائله هي فضائل الانسان الطبيعي في أحسن أوضاعه . أما أن تجازي الشر بالخير ، وهو شأن الله معنا ، فظنه مقياساً أدبياً فوق طاقته .

ثم أن أخلاقياته ضعيفة أيضاً من ناحية الخطية البشرية. فهو يؤمن أن طبيعة الانسان في أصلها صالحة،ولو أتبع موحياتها قادته الى الصلاح، أما الخطأ فيعزوه الى الجهل.وهو لم يدرك صراع بولس مع الجسد الذي تمثّل في صرخات المجربين من البشر مدى الاجيال : « الذي لا أريده هذا أفعله » . والظاهر أن زميله الحكيم الصيني الآخر « لاوتز » تعمق الى أبعد من هذا في الحياة البشرية ، ولو أنه لم يكن ذا أثر كبير في بلاده .

أهمية كتب الادب القديمة

ولقد أفرز كنفوشيوس شطراً كبيراً من حياته في تنقيح كتب الأدب الصينية القديمة « الكلاسيكيات » . و بعد موته صنّفت المؤلفات عنه وعن تعاليمه . وليس هيناً علينا أن نقدّر خطورة هذه الكتب في تاريخ الصين ـ

فان قلنا انها كتب الكنفوشية المقدسة كان قولنا حقاً، ولكنه بعض الحق ليس إلاّ .

ويحول ضيق المقام هنا دون التبسط في وصف التعليم الصيني . على أن الشعب الصيني يبزّ كل شعوب الارض في شعوره بضرورة التعليم، وفي تكريمه العلم والعلماء . والعامة لا تعرف كثيراً عن الكتب ، ولكن تعرف منها أقوالاً مأثورة جرت مجرى الامثال، ويعلمون أنه لو أتيح لولد أن ينبغ في علوم الادب القديمة، فان كل المناصب العليا في البلاد قد تسعى اليه. وقد أدّت الاصلاحات التعليمية الحديثة الى تغيير الموقف بالنسبة لكتب الأدب القديمة ، ولكنها لم تبدّل موقف الصيني حيال التعلّم .

ط ـ المرأة

وأما مكانة المرأة في الصين فقد كانت دائماً منحطة وضيعة. وفي قصيدة شعرية قديمة يُروى عن بطل وُلد له بنون فاضطجعوا على وسائد ناعمة . . . ووُلد له بنات فنمنَ على الارض الوعرة ! وخلقت المرأة في عرفهم ، وهي من الجنس الادنى ، للاعمال الحقيرة الدنيئة . وما عادة حزم الارجل بأحذية من حديد منذ الصغر ـ التي أخذت تزول الآن بفضل المؤثرات الغربية ـ إلا أثر من آثار امتهانهم للمرأة . وكنفوشيوس لم يعمل شيئاً لرفع المستوى الصيني ، لانه في نواح كثيرة آثر البقاء في المستوى العادي المألوف .

ي ـ التاوزمية

قلنا ان الكنفوشية هي اكثر الأديان ذيوعاً في بلاد الصين . وهناك

دين آخر يدعى « التاوزمية » نسبة الى مؤسسه « لاوتز ». ويذكرنا هـذا بيوذا من بعض الوجوه. فقد وُلد حوالي سنة ٦٠٤ ق.م. فكأنه كان معاصراً لـكنفوشيوس واكبر منه سناً. كان «لاوتز» فيلسوفاً، بينما كان «كنفوشيوس» سياسياً ومصلحاً أدبياً . وأودع نظامه وتعاليمه في سفر خاص .

وكان في دين «لاوتز» هذا فكرة أساسية عبّر عنها بكلمة (Tao) وهي كلمة ذهب العلماء مذاهب شتى في ترجمتها . وإنّا لنذكر أن الفكر اليوناني قبل عصر المسيح نشط للتعبير عن المبدأ المسيطر في الـكون فقال بعضهم انه «العقل»، وذهب آخرون الى أنه « الطبيعة ». ثم نشط اليهود أيضاً في ذلك العصر للتعبير عن مظهر الله في التاريخ فقالوا هو « الحـكمة » ، بينما اصطلح اليونان بكلمة (Logos) للافصاح عن المبدأ النهائي الكلّي لـكل الاشياء . وقد شغف « لاوتز » الذي عاش قبل هؤلاء وأولئك بنفس هذا التفـكير النظري حول المبدأ المسيطر في الـكون الذي أطلق عليه (Tao) .

ولقد ترجم العلماء هذه الـكلمة الصينية فقالوا : العقل ، المبدأ ، الطريق ، الطبيعة ـ وهي تشبه « الحـكمة Wisdom » العبرانية و « الـكلمة Logos » اليونانية ، وان اختلفت عنهما. وهي تعبّر عن المبدأ فيما وراء عالم الطبيعة، كما هو معلن في الطبيعة وفي الجنس البشري .

والظاهر أن المثل الأعلى في تعاليمه هو أن يسمح الانسان للطبيعة أن تعمل في حياته كيفما تشاء ، فلا يركن الى جهاد إرادته بلا جدوى وكان « لاوتز » رجلاً بعيد النظر ثاقب الرأي ، ويقال عنه انه حين التقى بكنفوشيوس ألمح له الى خطأ مبادئه الاساسية التي تزعم أن القانون كفيل بإصلاح الانسان ،

وقال له في عبارة صينية جرت مجرى الأمثال ان الانسان لا يفعل الصلاح لأن « أعماق قلبه لا يستقر فيها شيء من الصلاح ». وكأنه يردد هنا ما جاء في انجيل يوحنا « ينبغي أن تولدوا ثانية » . ومن تعاليمه أن يجازي الشرّ بالخير. وهذا عكس ما دعا اليه كنفوشيوس. ومع ذلك فان « لاوتز» هذا لم يؤثر إلا أثراً ضئيلاً في بلاد الصين . وذلك لان رسالته الوحيدة كانت أن يهجر الناس العالم ، بينما انصرف كنفوشيوس في دعواه الى إصلاح المجتمع .

وليس للتاوزمية شيء من هذا المعنى في هذا العصر إلا في عقول نفر قليل من الكهنة والعلماء . ولم تعد اليوم إلا مزيجاً من الخرافات تدور حول قوى الطبيعة وتكريمها عند وضع أسس المنازل أو حفر القبور . واختلطت بها في سهولة مناجاة الأرواح وقراءة الكفوف والسحر والتعاويذ . ولعلّ إباء الكنفوشية وقطعها كل علاقة بمثل هذه المظاهر،هو الذي حمل هذه الخرافات الوثنية على الالتجاء الى الديانة التاوزمية. ولقد تسللت اليها الخرافات بسبب ما انطوت عليه من أسرار غامضة ومعان ملتبسة . وربما كان في هذا الغموض قوتها التي تفتقر اليها الكنفوشية، ولكنها كانت أيضاً سبب ضعفها . وهي بالأسف نقطة الضعف في بلاد الصين هذا العصر .

البوذية الصينية

وفدت البوذية الى بلاد الصين حوالي بدء العصر المسيحي على يد المرسلين الهنود و بفضل الحجاج الصينيين الذين ذهبوا الى الهند وعادوا اليها حاملين الرسالة البوذية . فلما استوطنت هناك طرأت عليها بعض التغييرات . فبوذية

الهند لا إله لها . ولـكنها حين انتقلت الى الصين مالت الى الاعتقاد بفـكرة كائن مطلق يتمثل في شخصيات مختلفة ، بوذا واحد منها . وأشهر تلك الشخصيات في بلاد الصين مَن يدعونها « كوان ين » ، وهي عنـدهم إلهة الرحمة يرفعون اليها الابتهالات في المعابد البوذية .

ثم زالت فـكرة « النرفانا » في البوذية الصينية وحلّـت محلها فـكرة الفردوس المادية، وفيه تنعم النفس بالحديث مع الشخصيات الالهية. والبوذي الصيني لا يفقه شيئاً من معنى « النرفانا » الهندية، ولـكنه يعتقد أنه سيذهب بعد الموت الى فردوس في الغرب .

والصلوات أو على الأقل الابتهالات ذائعة في البوذية الصينية مع أنه لا وجود لها في البوذية الهندية التي شرعها بوذا نفسه.وفي بعض رقاع الصين قد أدخلت عجلت الصلاة الآلية التي يستعملها أهالي التيبت .

ثم ان النظام المقدس الذي وضعه بوذا لجماعة الشحاذين الزاهدين قد استحال في بلاد الصين الى جيش عرمرم من النساك والناسكات ، معظمهم في أحط درجات الجهل والغباء .

فـكأن البوذية عند انتقالها الى بلاد الصين قد أمست مادية وابتعدت عن روح مؤسسها ، ولـكنها استمسكت بطقوس ورسوم جافة . ومع هذا كله فانه من الخطأ أن نضعها مثلاً في مرتبة واحدة مع التاوزمية ،ذلك لأنها فعلت كثيراً في احياء فـكرة الخلاص في بلاد الصين. و بينما عملت الـكنفوشية لحمل الناس على الاكتفاء بفضائلهم الذاتية ، فان البوذية قد رسمت امامهم

صورة باهتة لفكرة الخلاص (ليس الخلاص من الخطية ، بل الخلاص من العالم المتألم بسبب خطيته)، عن طريق تضحية اختيارية من جانب قوة أخرى. ويقول المرسلون المسيحيون ان المتنصر البوذي يفهم حالاً فكرة الفداء في المسيحية .

خلاصة الديانة الصينية

والآن لنلخص ديانة الصينيين : منذ التاريخ القديم سادت فيها عبادة الاله «شنغتاي»، وعبادة الاسلاف ايضاً. ثم جاء كنفوشيوس فأقام، بالأسفار المقدسة التي كتبها ، و بتعاليمه وحياته الشخصية وأخلاقه ، مجموعة من التقاليد ما زالت باقية حتى اليوم . فقبل العبادة القائمة في عصره ومزج فيها تعاليم أدبية اجتماعية اقترنت باسمه ، ترمي كلها الى سلام الأمة ورفاهيتها . وتضيف البوذية الى هذا كله شيئاً كثيراً من السحر والشعوذة والخرافات ممتزجة بشيء من الدين الحقيقي: اما التاوزمية فهي — ما خلا الفلسفة التي لا يفقهها إلا نفر قليل من العلماء — وضع من أحط الأوضاع للسحر والسفسطة والمماحكة . وهذه الأديان الثلاثة مشتبكة مضفورة معاً وكلها رسمية، حتى البوذية والتاوزمية معترف بهما. ومن دلائل هذا الخلط الديني الغريب انه على الرغم من الاعتراف الرسمي بالتاوزمية والبوذية ، تجد الكنفوشية تذيع مرة كل اسبوعين في كل هيكل كنفوشي نداءً تنعي فيه البوذية والتاوزمية حاسبة اياهما عبادة وثنية ، و بعد هذا كله يصح القول ان الصيني هو في الوقت الواحد كنفوشي و بوذي ، وتاوزمي .

ويستند التفكير الكنفوشي الى التعليم، والى الحكومة الصالحة العادلة والعلاقة الاجتماعية المنظمة ، لترقية النفس البشرية ، وهو في هذا يجاري الى حد كبير التفكير الغربي الحديث. وليس في الكتب الصينية شيء عن تقدير ضعف الانسان الأدبي وما فيه من غريزة الخطأ، أو الاعتراف بحقيقة الارادة الشريرة ، مما تفرضه علينا فرضاً وجهة النظر العملية في الحياة . لذلك خلت من فكرة امكان استمداد المعونة من إله ، أو قوة للتجديد والإحياء من مصدر خارق للطبيعة .

على انه يتضح لنا جلياً لدى إعمال الفكرة ان بقاء القيم السامية البشرية يفتقر دائماً الى مرساة تثبت في إله ما. أما وجهة النظر التي تذهب الى أن الطبيعة البشرية صالحة بالضرورة وتستبعد الله كلية، فهذه أعجز من أن ترفع الانسان فوق المستوى الطبيعي .

نور معرفة الله

هل للمسيحية رسالة الى شعب الصين الذي ظل دهوراً يتعسس طريقه بين آلهة كثيرة ؟ — تقدم لذلك الشعب رسالة الله الواحد ، الآب ، المعلن في يسوع المسيح : ثم هي تهيء له ايضاً مستوى أدبياً سامياً ، أرفع من مستوى كنفوشيوس ، وأرقى من مستوى بوذا ، واكثر في تأثيره العملي من الفيلسوف لاوتز — مستوى مشتقاً، لا من فقه الحكماء والفلاسفة ، بل من صفات يسوع الذي تلائمت أقواله مع حياته . وحين يفشل البشر أمام سمو هذا المطلب ، تجدي عليهم المسيحية خلاصاً لا نصحاً ، وقوة من الله تعين

على الحياة الصالحة . ثم تضع المرأة في مكانتها المكرمة اللائقة بها ، وتلقى نوراً على الحياة بعد الموت . ومن الأسف أن الصين لم تنعم قط برجاء حي في الخلود ، فان البوذية والتاوزمية لم تعطيا إلا فكرة غامضة مبهمة عن الحياة المستقلة ، أما الكنفوشية فقد صمتت عندها ولم تنطق شيئاً ، ولو أن عبادة الاسلاف تنطوي على شيء من المعنى في هذه العقيدة . ولكن المسئلة كلها مضطربة غامضة . أما الرجاء المسيحي في الخلود فصاف رائق لا غموض ولا التواء فيه .

والآن ، وقد أخذت أنوار الخرافات الفاسدة تتضاءل في تلك البلاد ، فلا يجديها إلا النور الكامل الذي يشع من المسيح . أما الحقائق الأدبية الاخلاقية فلن يمكن أن تخلص أية أمة . ولهذا تنشط الديانة المسيحية في بلاد الصين لانقاذها من العصور المظلمة والتقاليد البالية .

٤

الشنتوية

والاديان الاخرى في بلاد اليابان

اليابان من شعوب الأرض الفتية. فلا يبدأ تاريخها المعروف (ان غضضنا الطرف عن الأساطير) قبل القرن الخامس بعد المسيح. وأقدم الوثائق اليابانية التي يعتمد عليها المؤرخون لا تبعد الى اكثر من القرن الثامن . وحضارتها مشتقة في أصولها من حضارة الصين . وانه لمن غرائب التاريخ أن نرى اليابان ، وقد اقتبست حضارتها عن الصين ، سابقتها في هذا الميدان ، تخطو في السنوات المتأخرة خطى واسعة وتسبق جارتها في الرقي المادي ، وكانت قبل هزيمتها في الحرب العالمية الثانية قوة عالمية يخشى بأسها كبريات الدول .

وحين نصف اليابان كأمة فتية ناهضة حتى بعد هزيمتها ، فالذي يدور في أخيلتنا ليس حداثة عهدها نسبياً في التاريخ ، انما هو تلك السرعة الفائقة التي ظفرت بها الى مقام الزعامة في الشئون التجارية والحربية مما أعدها لان تقف على قدم المساواة مع الدول الكبرى في معداتها العصرية الحديثة . ولقد نشأت اليابان الحديثة سنة ١٨٦٨ ومنذ ذلك التاريخ استطاعت أن تقلب نظم التعليم فيها وتقيمها على أحدث الأسس ، ثم تزج بنفسها في

مضمار التجارة الغربية وتصبح احدى الامم الصناعية الكبرى في العالم ، وان تكن لم تسلم من الاهوال التي تصحب النظم الصناعية عادة وخصوصاً في شعب شرقي حيث تضعف شوكة الحدود الادبية . وفي تاريخها الحديث أثارت حروباً ضد روسيا والصين كان فيها الفوز حليفها. ثم تضامّت الى الحلفاء في الحرب العالمية الكبرى وأثارت حرباً أخرى ضد الصين. وفي الحرب العالمية الثانية هزمت شرّ هزيمة سلبتها قوتها الحربية . على انها قد تصبح فيما بعد عاملاً كبيراً في سياسة الشرق الاقصى .

أديان اليابان

في اليابان ثلاثة أديان — غير المسيحية — وواحد منها فقط أصيل فيها نشأ في تربتها. ولقد كان للكنفوشية الصينية أثر كبير في تكييف الافكار اليابانية وآرائها الاخلاقية، ولكن أثرها مقصور الآن على الطبقات المتعلمة. وليس لها اليوم كبير أثر في بلاد اليابان . أما الدين الاصيل في بلاد اليابان فهو الشنتوية Shintoism وهو نوع من الثقافة القديمة المشتقة من عصور الاساطير العريقة في القدم ، وهي اليوم الأداة المختارة للتعبير عن الروح القومية الحيّة في بلاد اليابان. وهناك ايضاً البوذية المأخوذة عن الهند، وان تكن قد اصطبغت بألوان ومميزات جعلتها بوذية يابانية أو بوذية شرقية على حد قولهم:

الشنتوية

ولنبدأ أولاً بالشنتوية : وهذا الاسم هو نطق ياباني للكلمة الصينية التي معناها « طريق الآلهة » . وهي دين لا ينتسب الى مؤسس معين خلافاً للبوذية والكنفوشية . ولعلها كانت في أدوارها الأولى ضرباً من ضروب عبادة الأرواح ، ثم اختفت مع تطور الدين تلك الخواص الفطرية التي ظهرت في الأدوار الاولى ، وان يكن الكثير منها باقياً في الشعور الديني لرجل الكافة في اليابان . وما التعاويذ الخشبية أو الورقية التي تعلق عادة فوق أبواب المنازل ، وقطع القماش التي ترفرف فوق الآبار أو الاشجار المقدسة ، وحبال القش التي تتدلى فوق أبواب الهياكل — إلا آثار لعبادة الارواح التي كان مفروضاً على الاهلين استرضاؤها ، والتي تلقتها اليابان الحديثة عن تاريخها القديم . وكذا نجد في الشنتوية عبادة الطبيعة ، وخصوصاً قوى الطبيعة المنتجة ، وهي من خصائص الاديان الفطرية الاولى. ففي اليابان توقير خاص للآلهة الشمس أو كما يسمونها Amaterasu . ومن آلهتهم ايضاً Inari وهو إله الارز الذي تكثر معابده في الاقاليم التي تنبت الارز بكثرة في بلاد اليابان . ويطلقون لفظة Kami على كل إله أو شيء يسمو فوق الفرد، كالسماء مثلاً أو سلطان الحكومة .

توقير القبيلة

وفي عناصر تطورات الشنتوية الاولى نرى خير تعليل لقوة سلطانها في هذا العصر . و بين تلك العناصر توقيرهم للسلف من القبائل أو زعماء الجماعات

السالفة ، وقد كان هذا من المميزات البارزة في الشنتوية في عصورها الأولى. وهناك فارق بين توقيرهم للسلف من القبائل، و بين عبادة الاسلاف في بلاد الصين . ففي الاخيرة تتجه الفكرة الى الاكبار من شأن الاسرة أو الاب والام والجدود ، و إحلالهم موضع التوقير والعبادة في بلاد الصين . اما في الشنتوية فالفكرة متجهة الى الجماعة أو القبيلة . وعبادة الاسلاف الصينية ذائعة في بلاد اليابان ، ولكنها كنفوشية في اصولها ومكملة لتوقير الياباني لقبيلته وابطاله واسلافه .

عبادة الميكادو

وكان رجال قبيلة «يماتو» أشد الناس احياءً لتوقير السلف من القبائل، وهم الذين صاروا سادة اليابان فيما بعد ، وهم بناة مجدها ورافعو لواء عظمتها في تاريخها اللاحق. وكان زعيمهم، المعروف بالميكادو، مركز دينهم وعبادتهم. ثم زعموا أن الشمس تمتُّ اليهم بصلة القربى، ومنها تحدر الميكادو فحسبوه ممثل الشمس وآلهة السماء على الارض . وكانت عبادة أسلاف القبائل الذائعة في اليابان قبل إخضاع أسرة « يماتو » لها، خير ممهد لهذه العقيدة الجديدة. وفعل رجال « يماتو » كثيراً في تبسيطها وتقريبها الى أذهان العامة بأن أدخلوا عليها آلهة صغرى هم زعماء القبائل التي دانت بالطاعة والولاء لحكم الاسرة الفاتحة. وكان لهذا الجمع بين الآراء السياسية والدينية أثره الكبير ، فانتج في عصرنا هذا توقيراً يكاد يبلغ حد العبادة لشخص الامبراطور. على انه بعد الحرب العالمية الثانية تنازل الميكادو عن ألوهيته ، وأمسى شخصاً عادياً .

وها هنا نرى الميزات الخاصة البارزة في الدين الياباني، فالشنتوية ليست

ديناً محكم الاوضاع ، ولا تقاس بالهندوسية في أسرارها ، ولا بالـكنفوشية في متانتها الاخلاقية . ولـكنها منطوية على طراز معين من الوطنية الدينيـة المتطرفة. فالامبراطور والدولة كانا في نظر الياباني قبل هزيمة اليابان، هما كل شيء والفرد لا شيء. وكانوا يستسيغون تضحية الذات في سبيل الامبراطور، بل يرحبون بها كشرف عظيم . وقد كانت عبادة الامبراطور من العناصر البارزة في دين اليابان ، ولذا كانت عقبة في طريق انتشار المسيحية في تلك البلاد ، لأن المسيحية تضع الله فوق الامبراطور .

الاخلاق الشنتوية

أما من الوجهة الاخلاقية فالشنتوية ليست ديناً سامياً . فانها لا تعير اهتماماً كثيراً للأخلاق والآداب لانها لا تقيم للفرد وزناً . نعم ان بها فـكرة عن كرامة الفروسية (Bushido)، ولـكن اقتصارها على طبقة معينة يجعلها عديمة الجدوى كمبدأ أدبي أخلاقي لعامة الشعب . ولعلّ ذيوع الـكنفوشية والبوذية في اليابان قد حجب ما في الشنتوية من قدر قليـل في الآداب والاخلاق. على أننا نلحظ ناحية واحدة قد يكون فيها بعض الشيء من الصفة الادبية ونعني بها النظافة ـ « فان الدنس مصيبة، والرجس خطية، والطهارة الجسدية هي على الاقل قداسة . وكل شيء يدنس الجسد أو الثياب مستقبح ممجوج » . قد لعبت النظافة الطقسية دوراً خطيراً في الطقوس الشنتوية فجُبل الشعب الياباني على عناية خاصة بالنظافة الشخصية ، مما نحسبه قوة أدبية الى حدّ ما .

علاقة الشنتوية بالبوذية

قبل ألف سنة اندمجت الشنتوية في البوذية . فان كهنة البوذية قدموا الى اليابان سنة ٥٥٢ ب.م. من كوريا وتبعهم آخرون من بلاد الصين.وكان لهؤلاء أثر عميق في البلاط الملكي. ولكن ظلّ عامة الشعب قرنين ونصف على تشبثهم بالشنتوية القديمة.الى أن برز راهب بوذي فابتكر نظاماً ابتلعت فيه الشنتوية ، وفي هذا النظام أدمج كل آلهة الشنتوية حاسبا إياها مظاهر متجسدة لبوذا، واشترط أن يكون هذا شأن الأباطرة (الميكادو) في المستقبل، أي أن يُدمجوا ضمن هذه الآلهة الصغرى . ولئن كان بقي لدى عامة الشعب شيء كثير من عبادة آلهة الطبيعة ، فان هذا النظام قضى أن تدمج الشنتوية في البوذية .

وعقب هذا التبدل نهضة استيقظ فيها الشعور القومي و بلغ أوج قوته في ثورة سنة ١٨٦٨ ، فأظهر الشعب صداً عن كل أجنبي غريب وزحزح البوذية الدخيلة عن منزلتها العليا ، التي تسنمتها . فأزيلت التماثيل البوذية من الهياكل وأوقف الكهنة البوذيون عن ممارسة وظائفهم ، وعادت الشنتوية ديناً قومياً في المرتبة الاولى . وطبيعي أن يعقب هذا شيء من ردّ الفعل ، فرفعت البوذية رأسها ثانية،وخفض جناح الشنتوية،ولكن آثار تلك النهضة لم تضعف و بقيت عاملاً قوياً خطراً في تكييف حياة الشعب .

وجهة النظر الرسمية للشنتوية

وتميل النزعة الحديثة في دوائر اليابان الرسمية الى اعتبار الشنتوية مجرد

نظام قومي تتجسم فيه المشاعر القومية، لا ديناً بالمعنى الصحيح. وفي هذا يقول أحد نبلاء اليابان : « ان الشنتوية نظام محكم نرفع بموجبه قبعاتنا تكريماً لأسلافنا وأبطال وطننا». وهذا هو الاتجاه الذي تسير نحوه الشنتوية. ومما هو جدير بالذكر ان كهنتها لا ينذرون العزوبة ، ويقومون علاوة على أعمالهم ومهنهم العادية بوظائفهم الكهنوتية ، وذلك لان واجباتهم الدينية ضئيلة . ويعتقد كثيرون من اليابانيين أن ليس في الشنتوية ما يناقض المسيحية ، وما هي إلا نزعة قومية بحتة . ولكن قلّ بين مسيحيي اليابان من يسلّم بوجهة النظر هذه .

الشنتوية الرسمية اليابانية

في سنة ١٨٨٢ انقسمت كل المؤسسات الشنتوية بحكم القانون الى قسمين كبيرين : هما «الشنتوية الطائفية، والشنتوية الرسمية » . وحسبت الحكومة الطائفة الاولى « الدين الحق » ، أما الطائفة الثانية فخرجت من نطاق هذا التقسيم . ولقد قال أحد الثقات اليابانيين :—

« أما هذه الشنتوية الرسمية فيمكن أن تؤخذ كمظهر من المظاهر القومية وتعاليم الأخلاق والآداب اليابانية. والى هذا الحدّ يصح اعتبارها غير دينية. ولكن إذا تعمقنا في البحث لا نلبث أن نجد أن الشنتوية الرسمية ليست إلا ديناً نُسج نسجاً في نظم اليابان القومية» .

وتتولى الحكومة الانفاق على الهيا كل الرسمية التي تقام فيها حفلات الشنتوية الرسمية. ولا يجوز للشنتوية الطائفية أن تستعمل هذه الهيا كل للعبادة

فيها. وفي أعياد ومواسم هذه الهيا كل الرسمية، يتحتم على كل معلمي المدارس المحلية أخذ الطلبة الى تلك الهيا كل لمشاهدة الاحتفال .

ولباب هذه الشنتوية الرسمية هو عبادة الاسلاف. وكان غرض الحكومة في تعضيد الشنتوية الرسمية ورعايتها انما هو الاحتفاظ بعبادة الامبراطور وخلود مركزه وعصمته وتساميه فوق الجميع . وتقول إحدى النشرات التي صدرت عن وزارة المعارف في مارس سنة ١٩٣٧ : « إن أرضنا بلد إلهية ، يحكمها الامبراطور وهو إله». ولكن هذا كله قد تبدّل الآن، وأخذت تغمر اليابان نزعة ديمقراطية غربية ، واشرأبت أعناق الشعب الى المسيحية .

البوذية اليابانية

قلنا عن البوذية الشيء الكثير عند الافاضة في أديان الهند والصين ، وهي ناشطة في بلاد اليابان تتمثل في طوائف وشيع كثيرة ، بعضها يمتاز بالتسامح ، و بعضها يتصف بالتعصب ، و بعضها يميل الى الزهد والتصوف . وقد تطورت احدى تلك الطوائف تطوراً يغاير البوذية الشمالية وهي طائفة الشنّية التي تعد اكبر وأنشط الطوائف البوذية اليابانية . و يشاطر أتباعها البوذيين الشماليين وجهة نظرهم من حيث اعتبارهم بوذا جوهراً إلهيا حالاً في الكون ومتمثلا في أوضاع مجسمة شتى. وثقافتهم مأخوذة عن «أميدا بوذا». وهم يزعمون أن « أميدا » هذا ظهر على الارض في العصور الخوالي في شكل راهب وأخضع نفسه لضروب من الاذلال والقهر حتى استطاع أخيراً أن يرقى الى الحالة الجيدة التي نزل منها . وقبل عودته أثبت نذراً قال فيه انه لو قدّر له أن يبلغ درجة الكمال في البوذية فانه لا يرضى خلاصاً قبل أن يتهيأ

هذا الخلاص للجنس البشري المتألم . وتنفيذاً لهذا النذر عانى كثيراً من الآلام والأوجاع ولكنه غلب في النهاية . وكانت ثمار جهوده افتتاح فردوس في الأرض الطاهرة يجوز اليه كل من يدعون باسمه » .(١)

وكان مبدع هذا التعليم راهباً اسمه «شنران» نقل أغلب أحكامه وأوضاعه عن طائفة Jodo Sect وأضاف اليها عناصر أشبه بتلك التي أدخلها لوثيروس في عصر الاصلاح المسيحي . فقال ذلك الراهب : ان «الأعمال» أي التقشف والصوم والطقوس وما شاكلها، ليست بذي قيمة في الخلاص الذي يقوم في أصوله على الايمان في نذر « اميدا » . ولكي يدفع عنه تهمة القول إن تعليمه يبعث على الخطية ، أبدى أن الامتنان المتغلغل في نفس الانسان الذي يشعر بخلاصه يسوقه الى الاكثار من « الاعمال » أي أعمال الصلاح ، مدفوعاً إلى ذلك بروح الشكر اكثر منه بالرغبة في كسب الخلاص .

وليس « اميدا بوذا » لليابان فقط . فهو مظهر بارز في قوانين ومناسك البوذية الشمالية ، بل يقول البوذيون اليابانيون إن « غوتاما بوذا » أشار في أواخر حياته الى «اميدا » هذا . وهي قصة لا ترتكن الى سند ، بدليل الفارق العظيم بين تعاليم هذا وذاك . وتعاليم « اميدا » مقصورة على الطائفتين اليابانيتين، وخاصة الطائفة الشنية التي لا تقدم أية عبادة الى « غوتاما بوذا » وتخالف البوذية العادية في أن كهنتها لا ينذرون العزوبة ، وفي عدم مراعاتها شيء من قواعد التقشف والزهد في البوذية العادية .

---

(١) عن .A. Lloyd " The Creed of Half Japan "

بوذية اميدا والمسيحية

يبدو لكل مطلع، شيء من التشابه بين تعاليم « اميدا »، و بين بعض التعاليم المسيحية ، وخصوصاً تعاليم الرسول بولس عن التبرير بالايمان . والدليل متوافر على أن الراهب « شنران » عرف شيئاً عن المسيحية ، وكذلك عرف أسلافه من زعماء البوذية شيئاً عنها من جرّاء اختلاطهم بالمرسلين النسطوريين. على ان هـذا لا يحملنا على الاقلال من شأن تعاليم كهذه ، تزدهر في قلب البوذية و يعتنقها البوذيون في حماس شديد . وقد قلنا ان الطائفة الشنية أنشط وأكبر الطوائف الدينية البوذية في اليابان . ولعل في هذا دليلاً على ان الطبيعة البشرية تستأثرها فكرة الخلاص التي لا تقوم فقط على الاستحقاق «والأعمال». ومَن يدري ربما تستيقظ اليابان وتقبل مغتبطة قصـة الخلاص ، لا بوساطة كائن غامض تشير اليه الأساطير، بل بوساطة مخلص حقيقي أيّد مجيئه التاريخ.

ورغم التشابه بين بوذية اميدا و بين المسيحية، فانّا لا نتعامى عن الفوارق العظيمة بينهما . فالخلاص في نظر البوذي ليس خلاصاً من الخطية ، بل من قيود الرغباب ومن الآلام ومن الآثار التي تترتب على تناسخ الأرواح وانتقال الروح من وجود إلى آخر . وفكرة عن الخلاص كهذه ناقصة من الناحية الأدبية . ثم أن عقيدة البوذي في الحياة المستقبلة يحوطها الشك والارتياب ، فالفردوس عنده مجرد رجاء . وهو مكان تتوقف فيها النفس ردحاً من الزمن في طريقها الى الطور الاخير الذي يصعب التمييز بينه و بين الفناء .

الحالة الدينية العامة في اليابان :

وفيما عدا تينك الطائفتين — Jodo and Shin — اللتين تدينان بهذه التعاليم في أوضاع مختلفة ، فان البوذية ليست ناشطة في اليابان .

أما طوائف اميدا فناشطة جداً . وقد اقتبست إلى حدّ ما الاساليب المسيحية، كانشاء جمعية الشبان البوذية وغيرها من المؤسسات، وتقوم الهياكل بجهود وخدمات على نمط الخدمات التي تجريها الكنائس. وتغمر الطائفة الشنية نهضة تتبع أساليب النهضات الغربية. بل ان لها مرسلين في كوريا ومنشوريا، ويتحدثون عن إيفاد بعثة دينية إلى أمريكا. ومن هذا يتبين أن حياة البوذية اليابانية قائمة على ثقافة اميدا ، وحيث تختفي تلك الثقافة تبدو البوذية هيكلا عاطلاً عن الحياة .

ويجمل بنا أن نذكر هنا أن البوذية والشنتوية يتبادلان التسامح الكريم، فينتقل الناس من هيكل بوذي إلى معبد شنتوي في غير حرج . ولا بأس في الحفلات القومية أن تجرى طقوس شنتوية ، أو أن يراعى في الجنائز الرسوم البوذية . وأما العقائد الأدبية التي يعتنقها الفرد العادي المحترم فهي مزيج من « نظافة » الشنتوية ، والاخلاق الكنفوشية البوذية ، وربما بعض التعاليم المسيحية . وهذا التسامح هو في الحقيقة ظاهرة من ظواهر اللاأدرية وعدم الاكتراث بالدين ، وهي ظاهرة يراها الأجانب والوطنيون أنفسهم تتفشى بسرعة في اليابان . ولقد انتج تدفق الثقافة الحديثة مزيجاً مضطرباً من الآراء في عقول الناس وخصوصاً الناشئين ، يصحبه الشيء الكثير من التشكك

وانحلال المبادىء الادبية . والظاهر تماماً أن الشنتوية والبوذية لا تسدّان حاجات البلاد الادبية . ولقد بلغ الخوف بحكام اليابان وقادة الرأي فيها مبلغاً حملهم على عقد مؤتمر للأديان الثلاثة الرسمية ـ للمسيحية والبوذية والشنتوية ـ منذ سنوات ، وكان الغرض منه النظر في ترقية الاحوال الاجتماعية والادبية في بلاد اليابان . وقد كان هذا المؤتمر — بغض النظر عما آل اليه أمره — اعترافاً بعجز البلاد على مجابهة مشاكلها الادبية ، ودليلاً على المكانة التي بلغتها المسيحية .

التمسك بالقمر

هل للمسيحية رسالة إلى تلك البلاد ؟ من الناحية الادبية تمس المسيحية بلاد اليابان في حالتي ضعفها وقوتها . فالصدق والطهارة الجنسية من المميزات البارزة في الحياة المسيحية . ويلجأ كثيرون من غير المسيحيين الى الاستعانة بالمبادىء المسيحية من هذه الناحية . ثم ان الفكرة اليابانية عن التضحية وانكار الذات تتعمق وتزداد خصوبة في الصليب . وهناك دلائل تشهد لقوة الصليب في العقل الياباني إذ يُنظر اليه كنموذج من فعال البطولة وانكار الذات . أما الميول السلبية في البوذية — أي التقشف واذلال النفس وقمع الجسد — فهذه غريبة عن المزاج الياباني . وليس من شك في ان إهداء المبادىء المسيحية الادبية في أكمل أوضاعها سيكون له أبلغ النتائج في تلك البلاد .

ولدى المسيحية كل شيء تفتقر اليه اليابان من الوجهة الدينية . لان

الاديان اليابانية قد فشلت في اعلان الله للشعب الياباني . فالشنتوية وما تتضمنه من عبادة الطبيعة والوطنية الدينية لم تفعل شيئاً في الكشف عن الله الحقيقي ، ويعرف البوذي العادي من الخرافات والفردوس المادي أكثر مما يعرف عن الله . وفي اليابان مثل سائر يقول « بوصة واحدة فقط وإذا بنا في ظلمة حالكة »، اشارة إلى ظلام الغسق الذي يتحرك في نطاقه الدين الياباني . ولم تختبر اليابان قط تلك الطمأنينة الواثقة بالله التي تمكن الانسان من السير في مخاطر الحياة غير هياب ولا وجل ، ولم تعرف قط ذلك اليقين الهادىء المكين في محبة أب غير منظور وقوته .

قلنا إن الصليب يبدو للعقل الياباني كنموذج سام لتضحية الذات نيابة عن الغير . ولكن « الكفارة » و « الفداء » وحتى « الخطية » — مصطلحات غريبة عن الفكر الياباني. والصليب كديونة على الخطية، ورسالة للغفران، لا يثير في العقل الياباني الا قليلاً من اليقظة والاستعداد لتلبية ندائه. ولكن في هذا عينه الهبة الكبرى للياباني في نهاية الأمر. فحتى اذا افترضنا ان ثقافة « اميدا » تهيء للناس خلاصاً من الخطية ، لا من الآلام ، فانها تبقى جداً مفتقرة الى القوة لبثّ الشعور الحقيقي بالمسئولية الأدبية . ذلك لأن ليس لديها شيء يتسق مع الصليب أو يماثله. فهي تعلن مغفرة لا تكلف إلا قليلا ، وتميل نوعاً ما الى محبة الله ولكنها تفشل في اظهار قداسته . وحاجة اليابان الأدبية كما يعترف بها ساستها لا تسدّ الا بانجيل الغفران الذي يفتح عيون النفس لتدرك شناعة الخطية ومحبة الله الغافرة .

وقبل هزيمة اليابان في الحرب الأخيرة كانت أعظم عقبة في سبيل انتشار الروح الدينية الحقة هي روح القومية الشديدة والوطنية المضطرمة التي تملك على الشعب كل عواطفه. فالتوقير الديني للميكادو كان عنصراً فعالا، بل كان أفعل العناصر وأقواها في الحياة اليابانية . وكانوا يقيمون ضد المسيحية تهمة صارخة بأن مطالب المسيح تتعارض مع مطالب الميكادو . وقد تبدّل هذا كله بعد ان صار الميكادو انساناً عادياً . وحقاً إنه لمن أخطر الأمور على الامة أن تخلع على نفسها ومصيرها القومي ، في شخص حاكمها ، ذلك التوقير الذي لا يليق الا بالله دون سواه . واليوم تقدم المسيحية لليابان إقالة من عثارها . فالمسيحية لا تنطوي على خيانة أو ولاء بارد للوطن كما كان يزعم الياباني، ولكنها توسع نطاق الوطنية . والمسيحي ينظر الى مصير أمته وأمجادها كأنها مجتمعة ومتضمنة في فكرة أوسع هي ملكوت الله على الأرض ، ذلك الملكوت الذي تفرغ فيه كل الشعوب مجدها وكرامتها . ههنا ، وههنا فقط ، الحق الذي يوسّع آفاق الوطنية العمياء الضيقة . والمهمة الملقاة على عاتق المسيحيين الوطنيين في اليابان ، أن يظهروا للملأ ان الوطنية لا تضيق بهذه الفكرة الواسعة ، بل بالأولى تزداد نبلاً وكرامة ومجداً ، وان الانسان يحب بلاده أصدق حب ، ويخدمها أجل خدمة ، متى طلب أولا ملكوت الله

الاديان السامية

والآن نجيء الى الاديان الثلاثة الكبرى التي نشأت بين العنصر السامي — وهي اليهودية والمسيحية والاسلام :

ولما كانت هذه الأديان الثلاثة ما برحت حيّة متجاورة في الشرق الأدنى الذي اتخذته من قبل مهداً لها ، فقد آثرنا أن ندع كل دين منها يتحدث عن نفسه. ولم نجد شيئاً من العناء في الحصول على بيان رسمي لليهودية في دائرة المعارف العبرية بقلم عالم انكليزي من اليهود المحافظين . على أنه ليس من الهيّن في هذا العصر العثور على بيان واحد يلخص الاسلام كله تلخيصاً وافياً ، وذلك لتباين الآراء ، لا في العقائد الاساسية ، بل في تأويلها والاجتهاد فيها في هذا العالم العصري. وقد رأينا ان نقتبس رسالة عن « عقيدة أهل الاسلام» ، كتبها العالم الكبير الشيخ محيي الدين بن العربي يشرح فيها الشهادتين . وهو من فلاسفة الاسلام ومتصوفته الذين عاشوا في القرن السابع الهجري .

وأخيراً بحث في المسيحية بقلم الاستاذ « وليم باتون » الذي نقلنا عن كتابه خلاصات الأديان الأسيوية التي تقدّم البحث فيها .

٥

اليهودية

(بقلم الدكتور هربرت لوي ، من اليهود الانكليز المحافظين ،
واستاذ اللغة العبرية في كلية اكستر باكسفورد)

اليهودية : وصفها :

قد يصح أن نصف اليهودية بأنها أشد الديانات استمساكاً بفكرة التوحيد ، ولكنها في الواقع اكثر من مجرد عقيدة عقلية جرداء ، فهي الأثر الذي تطبعه هذه العقيدة، بكل نتائجها المنطقية ، على الحياة — أي على الأفكار والسلوك . هي الدين الذي دعا اليه أولاً ابراهيم خليل الله ، وتمثل في عهد الختان ، وما يزال أنساله يمارسونه حتى اليوم . هي اقدم الديانات في الارض، ولد في أحضانها ديانتان قويتان، سادتا اكثر أقطار الكرة الأرضية. وقد عملتا على اذاعة مبادىء اليهودية في أوضاع معدّلة، ولكن جوهر تعاليمهما يهودي، على الرغم مما بهما من اضافة أو حذف. من ثمّ لا ترى اليهودية تجحد تينك الديانتين ، ولا تحسبهما باطلتين وثنيتين .

وليس من الهيّن أن نضع وصفاً دقيقاً رسمياً لليهودية، فان هذا يثير أمامنا سؤالا : ما الحد النهائي الأدنى لتطابق الوصف ؟ على أنه قد يقال ان اليهودية

تقوم على أساسين : هما وحدانية الله ، واختيار اسرائيل. وتنبذ اليهودية عبادة الأوثان والشرك بالله، وتؤمن باله للبشرية قاطبة ولكنها ليست ديناً جامعاً. وتؤمن أن هذا العالم صالح، وان في وسع الانسان بلوغ الكمال ، وان له ارادة حرة مختارة تجعله مسئولا عن أعماله. ثم هي ترفض كل وسيط بين الله والانسان، ولا تعترف بأية قوة في الكون تعمل الشر. فالانسان في نظرها حرٌّ ، ليس خاضعاً للشيطان . ثم ان خيرات الحياة المادية ليست في حد ذاتها شريرة ، فالثروة قد تكون بركة وقد تكون لعنة. وقد خلق الانسان على صورة الله، لذلك تحسبه اليهودية مخلوقا كريماً كسائر اعمال الله . ولهذا السبب عينه تحسب الناس كلهم اخوة . وكما اتحدوا في بداية الأمر ، سيتشابكون معاً مرة أخرى في نهاية الدهور ، ويقتربون الى ملكوت السماء بمعونة اسرائيل . ووظيفة اليهودية أن تنشر السلام والمودة في العالم .

ولقد منحت اليهودية الجنس البشري — بما انطوت عليه من فكرة الملكوت الالهي الممكن اقامته في هذه الأرض على دعائم الحق والبر — رجاءً يرنو اليه، وهيأت للتاريخ هدفاً يحيا به، ويجاهد نحوه مدى الاجيال . وتشهد شعوب أخرى في تطورات العالم انحلالاً مستمراً، من عصر ذهبي تغمره السعادة والرخاء ، الى عصر حديدي يشقى فيه العالم بالكد والعناء ، إلى أن ينتهي الأمر بطامة كبرى تأتي فيها النيران والدمار على نهاية كل الاشياء ، على الانسان والآلهة معاً . أما اليهودية فتومىء الى حالة من الكمال الانساني ، وغبطة تتأتى عن كشف ما هو إلهي في الانسان ، واعلان مجد الله كاملاً ، كهدف نهائي يسعى اليه التاريخ .

وهنا الفارق البارز بين اليهودية والمسيحية . فمجال اليهودية ليس فيما وراء هذا العالم ، أي عالم الروح ، الذي لن يقدر الانسان العائش هنا على الأرض أن يدركه. أما رجاء القيامة ورجاء الخلود ، اللذان تعرفهما كل قبائل الشعوب وكافة العقائد، في وضع ما من أوضاعهما، وتحسبهما ضرورتين لازمتين، فالظاهر أنهما قد انسابا الى اليهودية من عقائد دخيلة ، وربما أخذت رجاء القيامة عن الفرس أو بابل ، ورجاء الخلود عن الاغريق . ولا سند لأيهما في اليهودية بالذات. أما غرضها الأوحد فهو أن تجعل هذا العالم الحاضر ملكوتاً إلهياً قائماً على الحق والبر . وفي هذا تتميز نزعتها العقلية والاخلاقية العملية[1] .

ويتحقق هذا الغرض باصرارها على عقيدة التوحيد، وعلى ممارسة الوصايا. وتنقر اليهودية على وتر الاعمال اكثر من تنقيرها على وتر الايمان، وان تكن الاعمال لا قيمة لها بدون الايمان .

واليهودية ليست بحاجة الى عقيدة ايمان . أجل انه من المشكوك فيه جداً أن يُدعى الكافر الملحد الذي يحفظ التوراة ويرعى مبادىء البرّ اليهودية يهوديا. وما من شك انه « يخلص » بالمعنى المسيحي، لأن اليهودية تعلّم أن لكل بار ، بغض النظر عن عقائده ، نصيبا في العالم الآتي . ولكن لان

---

(١) وليست اليهودية عقيدة أو نظاماً من العقائد يتوقف على قبولها الفداء أو الخلاص في المستقبل. ولكنها نظام للسلوك البشري وناموس البر الذي يتحتم على الانسان اتباعه . (عن كوهلر — في دائرة المعارف العبرية) .

اليهودية تؤمن أن كل انسان صالح «مخلص»، فانها تحتم أن يكون اليهودي الصالح شيئاً آخر، اسمى اخلاقياً، من مجرد كونه انساناً صالحاً.

و بينما تفتح اليهودية الباب للدخلاء، فمن طبيعتها أن تبقى دائماً دين الاقلية الضئيلة، وذلك بسبب ما تفرض من تضحية و إيثار. ووظيفة اليهودية أن تبقى وصية على المُثل العليا، طاهرة الذيل سليمة أمام أعين العالم. ولزام على اليهود أن يحاموا عن مُثلهم العليا، ولو زهقت منهم الأرواح في هذا السبيل، ولو ضحُّوا، كما فعلوا في القديم، لا حياتهم فقط، بل رخاءهم المادي، وهي تضحية أقسى عليهم من سواها. وما أكثر الشهداء العتيدين الذين أزاغت أبصارهم الثروة المادية فلم يكترثوا بالمثل العليا التي كان لزاماً عليهم أن يبذلوا حياتهم في سبيل الاعتصام بها إبان الاضطهاد.

والعالم في مسيس الحاجة لأقلية من ذوى المثل العليا. ولئن تكن اليهودية لا تجحد الحق الذي تعلّم به المسيحية والاسلام، إلا أنها تؤمن في الوقت عينه أن في كلتا الديانتين عناصر أخرى لا تنسجم انسجاماً تاماً والمصدر البدائي الفطري الذي انبثق عنه هذا الحق. فاليهودية إذاً لا تناهض الاوضاع الدينية التي درج عليها الناس وألفوها وأحبوها، وليست علّة وجودها أن تنافس الجهود التبشيرية الناشطة التي تقوم بها ابنتاها، الكنيسة والمسجد. وهي تحسب نفسها، لا الوضع الوحيد للحق، ولكنها أخلص أوضاعه كلها وأكثرها طهراً ونقاء. و بينما تنشط المسيحية، و ينشط الاسلام، لبثّ تعاليمهما في العالم، فان اليهودية تترقب حلول اليوم الذي تتمكن فيه من بذل نفوذها وادخال

تأثيرها على تينك الديانتين كما فعلت في الاصل ، ومن هنا تبسط سلطانها على كل العالم.

أما كيف يحدث هذا، وفي أي وضع تكون العبادة الجامعة للاله الواحد، فهذا ما لم تتعرض لشرحه أو التعليق عليه . وهذا « الدين المحتَقر » الذي يستمسك في الواقع بالبقية الباقية من البر ، أو قل بجوهر البر، سيبقى مصوناً لا يتطرق اليه الفناء أو الفساد ، بسياج الوصايا العشر . ولقد نشأ ونما ، في حلقة متواصلة لم تنقطع ، مبتدئاً بالاعتراف البسيط بالوحدانية . ثم تطور وغدا نظاماً للحياة كاملاً شاملا. وقد بُدىء في كتابة القصة من عصر ابراهيم الى يومنا هذا ، والقلم لم يفرغ بعد من الكتابة والتدوين .

٦

عقيدة أهل الاسلام

للشيخ الاكبر محيي الدين العربي[١]

. . . قال الشيخ الامام العالم العامل محيي الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن العربي: هذه رسالة تتضمن ما ينبغي ان يعتقد في العموم وهي عقيدة أهل الاسلام، مسلّمة من غير نظر الى دليل ولا الى برهان . فيا أخوتي المؤمنين ختم الله لنا ولكم بالحسنى، لما سمعت قوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام حين قال لقومه المكذبين به وبرسالته: إني أشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون من دونه . فأشهد عليه السلام قومه مع كونهم مكذبين به على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والاقرار باحديته، لما علم عليه السلام ان يستوقف عباده بين يديه ويسألهم عما هو عالم به لإقامة الحجة لهم أو عليهم حتى يؤدي كل شاهد شهادته. وقد ورد ان المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس وكل من سمعه . ولهذا يُدبر الشيطان عند الآذان وله حصاص ، وفي رواية وله ضراط . وذلك حتى لا يسمع نداء المؤذن بالشهادة ، فيلزم أن يشهد له

(١) نقلا عن كتاب « الهدية السعدية »، وهو مجموعة ست رسائل لبعض علماء الاسلام طبعت بمطبعة النجاح ، لصاحبها محمد حسين الترزي .

فتكون تلك الشهادة له من جملة مَن يسعى في سعادة المشهود له . وهو عدو محض ليس له الينا خير البتة . واذا كان العدو لا بد أن يشهد لك بما أشهدته على نفسك، فأحرى أن يشهد لك وليُّك وحبيبك مَن هو على دينك وملتك، وأحرى أن تشهده أنت على نفسك بالوحدانية والايمان في دار الدنيا . فيا اخواني ويا أحبابي رضي الله عنكم، أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير الى الله تعالى في كل لحظة وطرفة ، وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشؤه ، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله وملائكته ومَن حضره من المؤمنين ومَن سمعه، أن يشهد قولا وعقدا أن الله تعالى إله واحد لا ثاني له في ألوهيته، منزه عن الصاحبة والولد، لا شريك له ، ملك لا وزير له ، صانع لا مدبر معه ، موجود بذاته من غير افتقار الى موجد يوجده ، بل كل موجود سواه مفتقر اليه تعالى في وجوده ، والعالم كله موجود به، وهو أوجده وهو متصف بالوجود لنفسه، لا افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه ، بل وجود مطلق غير مقيد قائم بنفسه ، ليس بجوهر متحيز فيقدر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ، ولا بجسم فيكون له الجهة والتلقاء، مقدس عن الجهات والاقطار، مرئي بالقلوب والابصار ، اذا شاء استوى على عرشه كما قاله، وعلى المعنى الذي أراده ، كما ان العرش وما سواه به استوى . وله الآخرة والأولى ، ليس له مثل معقول ولا دلت عليه العقول. لا يحده زمان ولا يقله مكان ، بل كان ولا مكان وهو على ما عليه كان. خلق المتمكن والمكان، وأنشأ الزمان وقال انا الواحد الحي لا يؤده حفظ المخلوقات ، ولا يرجع اليه صفة لم يكن عليها من صنعه المصنوعات. تعالى أن يحله الحوادث، أو يحلها أو تكون بعده أو يكون قبلها ، بل يقال

كان ولا شيء معه. فان القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فهو القيوم الذي لا ينام، والقهار الذي لا يرام. ليس كمثله شيء. خلق العرش وجعله حد الاستواء، وأنشأ الكرسي واوسعه للأرض والسموات. العلي المخترع اللوح والقلم الأعلى وأجراه كاتباً بعلمه في خلقه الى يوم الفصل والقضاء. أبدع العالم كله على غير مثال، سبق وخلق الخلق، وأخلق الذي خلق. أنزل الأرواح في الاشباح أمناً، وجعل هذه الاشباح المنزلة اليها الأرواح في الارض خلفاً. وسخر لنا ما في السموات وما في الارض جميعاً منه، فلا تتحرك ذرة الا اليه، وعنه خلق الكل من غير حاجة اليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه، ولكن سبق بأن يخلق فهو الاول والآخر، والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير. أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً. يعلم السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، كيف لايعلم شيئاً وهو خلقه، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. علم الأشياء قبل وجودها. ثم أوجدها على حد ما علمها فلم يزل عالماً بالأشياء. لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء، وأحكمها و به حكم عليها من شاء وحكمها. علم الكليات على الاطلاق، كما علم الجزئيات بالاجماع من أهل النظر الصحيح واتفاق، فهو عالم الغيب والشهادة فتعالى الله عما يشركون. فعّال لما يريد فهو المريد الكائنات في عالم الأرض والسموات. لم تتعلق قدرته بشيء حتى أراده، كما انه لم يرده حتى علمه، إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لم يعلم أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريده، كما يستحيل أن يوجد نسب هذه الحقائق في غير حي، كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة

بها. فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حر، ولا برد ولا حر، ولا حيوة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا بر ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عرض، ولا صحة ولا مرض، ولا فرح ولا ترح، ولا روح ولا شبح، ولا ظلام ولا ضياء، ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل، ولا بياض ولا سواد، ولا رقاد ولا سهاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشر ولا لب، ولا شيء من هذه النسب المتضادات منها والمختلفات والمتماثلات الا وهو مراد الله تعالى. وكيف لا يكون مراداً له وهو أوجده. وكيف يوجد المختار ما لا يريد. لا راد لأمره ولا معقب لحكمه. يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويضل من يشاء ويهدي من يشاء. ما شاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن. لو اجتمع الخلايق كلهم على أن يريدوا شيئاً لم يرد الله تعالى أن يريدوه ما أرادوه، أو يفعلوا شيئاً لم يرد الله ايجاده وأرادوه عند ما أراد منهم أن لا يريدوه ما فعلوه، ولا استطاعوا على ذلك ولا أقدرهم عليه. فالكفر والايمان، والطاعة والعصيان، من مشيئته وحكمه وارادته، ولم يزل سبحانه موصوفاً بهذه الارادة أزلا والعالم معدوم غير موجود، وان كان ثابتاً في العلم في عينه، ثم أوجد العالم من غير تفكر ولا تدبر عن جهل أو عدم علم، فيعطيه التفكر والتدبر علم ما جهل جل وعلا عن ذلك، بل أوجده عن العلم وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه من زمان ومكان أكوان وألوان. فلا مريد في الوجود وعلى

الحقيقة سواه، إذ هو القائل سبحانه: وما تشاءون إلا أن يشاء الله، وانه سبحانه كما علم فاحكم وأراد فخصص وقدّر فأوجد، كذلك سمع ورأى ما تحرك أو سكن أو نطق في الورى، من العالم الاسفل والأعلى. لا يحجب سمعه البعد فهو القريب، ولا يحجب بصره القرب فهو البعيد. يسمع كلام النفس في النفس وصوت المماسة الخفية عند اللمس. ويرى السواد في الظلماء والماء في الماء، لا يحجبه الامتزاج والظلمات ولا النور وهو السميع البصير. تكلم سبحانه، لا من صمت متقدم ولا سكوت متوهم، بكلام قديم أزلي كسائر صفاته من علمه وإرادته. وكلم به موسى عليه السلام سمّاه التنزيل والزبور والتوراة والانجيل، من غير حروف ولا أصوات ولا نغم ولا نغمات. بل هو خالق الاصوات والحروف واللغات. فكلامه سبحانه من غير لهات ولا لسان، كما ان سمعه من غير اصمخة ولا آذان، كما ان بصره من غير حدقة ولا أجفان، كما أن ارادته من غير قلب ولا جنان، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر في برهان، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان. فسبحانه سبحانه من بعيد دان عظيم السلطان عميم الاحسان جسيم الامتنان. كل ما سواه فهو من جوده فائض فضله وعدله الباسط له القابض، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه. لا شريك له في ملكه. ان أنعم فنعم فذلك فضله، وان أبلى فعذب فذلك عدله. لم يتصرف في ملك غيرة فينسب الى الجور والحيف. ولا يتوجه عليه لسواه حكم فيتصف بالجزع لذلك والخوف. كل ما سواه تحت قهره سلطان ومتصرف عزّ ارادته وأمره. فهو الملهم نفوس المكلفين التقوي والفجور، وهو المتجاوز عن سيئات من شاء والآخذ بها من شاء هنا وفي

يوم النشور . لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله . أخرج العالم قبضتين وأوجد لهم منزلتين، فقال هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي . ولم يعترض عليه معترض هناك، فقال إذ لا موجود ثم سواه هيا كل تحت تصريف اسمائه الاءه، ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان، أو شقياً لما كان من ذلك في شأن . لكنه لم يرد فكان كما أراد، فمنهم الشقي والسعيد هنا وفي المعاد . فلا سبيل لى تبديل ما حكم عليه القديم . وقال تعالى هي خمس وهي خمسون ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد لتصرفي في ملكي وانفاذي مشيئتي في ملكي. وذلك لحقيقة عميت عنها الابصار والبصائر ، ولم تعثر عليها الافكار والضماير ، إلا بوهب إلهي لمن اعتنى به من عباده وسبق له ذلك برحمة اشهاده . فعلم حين أعلم أن الالوهة أعطت هذا التقسيم وأنه من دقايق القديم ، فسبحان من لا فاعل سواه ولا موجود لنفسه إلا إياه . والله خلقكم وما تعلمون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ولله الحجة البالغة فلو شاء لهدا كم أجمعين .

الشهادة الثانية :

وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه واياكم بالايمان بمن اصطفاه واختاره واجتباه من جوده ذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي ارسله إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله باذنه، وسراجاً منيراً فبلغ صلى الله عليه وسلم ما أنزل من ربه اليه وأدى أمانته ونصح أمته ووقف في حجة وداعه على كل من حضر من أتباعه فخطب وذكر وخوف وحذر و بشر وأنذر

ووعد وأوعد وأمطر وأرعد . وما خص بذلك التذكير أحداً من أحد عن إذن الواحد الصمد . ثم قال أهل بلغت . فقالوا بلغت يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اشهد واني مؤمن بكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم مما علمت ومما لم أعلم . فما جاء به وقرر أن الموت حق عن أجل مسمى عند الله إذا جاء لا يؤخر فأنا مؤمن بهذا إيماناً لا ريب فيه ولا شك ، كما آمنت وأقررت أن القبر حق . وعذاب القبر حق . و بعث الاجساد من القبور حق. والعرض على الله حق . والحوض حق . والميزان حق . وتطاير الصحف حق. والصراط حق . والجنة حق . والنار حق . وفريق في الجنة ، وفريق في السعير حق . وكرب ذلك اليوم حق على طائفة . وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر . وشفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين واخراج أرحم الراحمين بعد الشفاعة من النار مَن شاء حق . والتأبيد للمؤمنين والموحدين في النعيم المقيم في الجنان حق . والتأبيد لأهل النار في النار حق . وكل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله علم أو جهل حق . فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند كل من وصلت اليه أن يؤديها اذا سئلها حيث كان نفعنا الله وايا كم بهذا الايمان وثبتنا عند الانتقال من هذه الدار إلى دار الحيوان ، وأحلنا منها دار الكرامة والرضوان ، وحال بيننا و بين دار سرابيلها القطران ، وجعلنا من الذين أخذوا الكتب بالأيمان ، وممن انقلب من الحوض وهو ريان ، وثقل له الميزان وثبت له على الصراط القدمان ، انه المنعم المحسان. لقد جاءت رسل ربنا بالحق فهذه عقيدة العوام من أهل الاسلام أهل التقليد وأهل النظر ملخصة مختصرة ، والحمد لله وحده (تمت) .

٧

المسيحية

رسالة جامعة الى العالم

لا يسع كل متتبع لهذه البحوث الموجزة التي أسلفنا عن أديان العالم الكبرى، إلا أن يتأثر في قرارة نفسه بما يلمس من شجن الانسان في تلمسه الطريق نحو الله — وسواء افكر الباحث في النفوس الكبيرة التي اضطرمت بضرام إلهي برّاق أم في الجماهير الغفيرة التي اشرأبت أعناقها إلى السموات وآمنت باله من نوع ما، لا يسعه إلا الاحساس بأن طبيعة الانسان تصبو الى الله، ولن يهدأ لها بال حتى ترتوي هذه الطبيعة الصادية. «أنت قد جعلتنا لك، ولن تهدأ قلوبنا حتى تجد فيك مستقراً». وقد يكون حقاً أن جموعاً من الخلق لا تفكر في الله مطلقاً — ولو أن في الأمر شكاً، اذ ربما يكون الله موضع عبادة هذه الجموع تحت ستار مَثل أعلى أو نزعة غالبة، دون أن يخطر على أحد أن يدعو مَثله الاعلى أو نزعته الغالبة — الله. فضلاً عن ذلك فا ه من خطل الرأي أن نزعم ان كلّ من يدين بالهندوسية أو الاسلام أو البوذية طالب غيور يطلب الله ويسعى اليه، وكل مبتغاه أن يعلن له الوحي الصادق الذي لا مين فيه. كما أنه من خطل الرأي أيضاً أن نزعم أن كل مَن يدعو

نفسه مسيحياً يحسب تابعاً متواضعاً صادقاً من أتباع يسوع المسيح . وكان مجال البحث في هذا الكتاب محدوداً ، فلم نستطع الا اثبات خلاصات للأديان المختلفة ، دون أن نسهب في وصف تفصيلي لمظاهرها العملية . فبين جماهير الكافة في كل نظام من هذه النظم الدينية ، لا نرى الا قليلا مما نقدر على إخراجه من دائرة الوثنية الوضيعة ، والآداب الرخيصة ، والتخوف من الأرواح الشريرة . على اننا في حكمنا على الاديان لا نراعي اسوأ ما فيها ، بل أفضل ما بها . ولسنا ننكر ان فيها من دلائل المثل العليا ما تستطيع النفس أن تنهض به للوصول إلى الله .

فشل الاديان

و بعد هذا التصريح الصريح، لامندوحة لنا عن التسليم بنواحي القصور فيها . فأي إله قدمت هذه الأديان للانسان في آخر الأمر ؟

لقد رأينا كيف تذبذبت الهندوسية بين فكرة عن عالم روحي تنقصه الشخصية، وفكرة عن إله ليس له إلا شخصية محدودة. وكيف جابه «غوتاما بوذا » أحزان الحياة وآلامها وحيداً مستوحشاً ، وجاء الى البشر بأنجيل قوامه قمع الرغبات — وهو عوض هزيل لا يغني عن الله بديلاً . ورأينا كيف عاشت بلاد الصين احقاباً طوالاً في غمرة من الشك والغموض والابهام حيال الله، وكيف بلغت اليابان فكرة عن المحبة الالهية ، لا بأس بها ، ولكنها مؤسسة على اسطورة لا تقوى على البقاء أمام قوة العلم التي لا تلبث أن تكتسحها. انها لصورة حافلة بالانوار المتكسرة، وليس فيها نور صاف يشع منه

الايمان الكامل. أجل، ان الله لم يترك نفسه بلا شاهد ، ولكنه لم يُعلن في هذه كلها كما هو في طبيعته الحقة .

من ثمّ لا نرى في هذه الاديان ديناً جامعاً شاملاً .وليس ثمة رسالة تستطيع أن تشق لها طريقاً بين الجنس البشري غير بشارة الله المفرحة :

التعليم المسيحي عن الله

لنعد الآن الى بحث مطالب الدين المسيحي بأنه دين جامع للجنس البشري قاطبة . ونرى قبل كل شيء أنه يحدثنا عن الله . واذا رمنا أن نفهم طبيعة الله في المسيحية ، فهناك نراه : الله الذي عاش معه يسوع في صلة وثيقة لا تنفصم عراها ، صلة الابن بالآب . وكل ثروات الولاء والتعبد التي خلّفها كتّاب العهد القديم — كلها أختزنت في فكر يسوع ، عوناً لنا على فهم حقيقة الله . فهو الاله الذي تفوق قداسته كل تصورات الانسان.عيناه أطهرا من أن ترى الشر ، هو خالق البشر والمسيطر على العالم . هو « الآب » ، ويحمل هذا اللقب كل معاني العطف والمودة والحنان.

ومن المألوف أن يوصف الله ، حسب الفكر المسيحي ، بأوصاف ثلاثة هي : المحبة والقداسة والقوة . ولما كان أنبياء اسرائيل من دعاة التوحيد ، وقد بلغوا هذا اليقين، لا من طريق الفلسفة العقلية والمحاجة المنطقية، بل من طريق تفهمهم قصد الله وادراكه في أظلم صور الحياة واحلكها،فانه يتعين علينا ألاّ نستخدم هذه المصطلحات المليئة بالمعاني : وهي محبة الله وقداسته وقوته، استخداماً هيناً سطحياً ، خشية أن تفوتنا الحقيقة الهائلة التي تنطوي عليها .

أما هذه الحقيقة فقد عرفناها من تعدد المحاولات البشرية في تفهّم أسرار الكون ، والوصول الى حقيقة يطمئن اليها القلب والعقل .

أما عن لفظ « المحبة » فقد قيل من أشباهها كلمات كثيرة في الأديان الأخرى. ولكن هذه الكلمة تشمل عدة من المعاني . وقد يراها بعضهم منطوية على أداء معروف، أو مظهر من مظاهر الأنس والرقة وحسن الاخلاق، ولكن المحبة في الفكر المسيحي هي التي تتألم الى أقصى حدود الألم . أما كون الانسان يصبو الى المعرفة بأن الله يحبه، فهذا أمر لا جدال فيه . على أن الادلة المستنبطة من دراسات علم الدين المقارن ، تثبت لنا أن الانسان قد تعذر عليه بلوغ هذه العقيدة . ولقد لمحنا منها ومضات عابرة مضطربة ، في الاساطير والخرافات القديمة . وقد كان الحال هكذا عند الاغريق والرومان في القديم . فقد لمح البشر ومضات خاطفة عن الله المحب في أساطير الاله إيزيس أو الأم العظمى . وذهب أفلاطون الى القول إن المحبة الالهية هي أساس الخليقة . أما أرسطو (ومثله سبينوزا) فقد ذهب الى أن الله لم يحب العالم، ولو أن العالم والانسان قد أحبّاه ، ولزام عليهما أن يحبّاه . أما فكرة « الله محبة » فقد جاءت الى العالم الوثني بيسوع المسيح . ثم ان « المحبة » و « القداسة » في التعليم المسيحي، متحدتان اتحاداً تاماً . فالقداسة في الاصل قبل المسيحية، قد اختص بها الله تعالى ، ولكن حملت معها فكرة الرهبة والسرّية التي لا تُدرك ، أكثر من فكرة الطهارة وصفاء الذات . على اننا نرى في العهد القديم عاموس النبي[1] يذيع رسالته الرهيبة ، فيقول

(١) عاموس ٣ : ٢

إن الله يعاقب ذنوب شعبه اسرائيل، لانه قد عرف اسرائيل من بين جميع قبائل الارض . هنا نرى القداسة والمحبة تتحدان معاً اتحاداً مكيناً .

وفي العقيدة المسيحية عن الله، لابد أن نجمع بين القوة والقداسة والمحبة معاً . وانه لمن الخطر أن نفصل بين هذه الصفات الثلاث. ويتفاقم الخطر إذا حاولنا أن نفصل القوة عن القداسة والمحبة . وتذهب الفكرة المسيحية في نسبة القدرة الى الله، الى أنه تعالى الخالق المطلق الذي لا تحدُّه إلا قداسة ذاته ومحبته .

ولن يبلغ الانسان هذا الايمان من طريق المطارحات النظرية، بل بالهام من الله واعلان منه . ونقصد بذلك ان البشر قد عرفوا الله لانه أعلن ذاته لهم . هذه هي شهادة الكتاب المقدس المنسجمة.ولا ندحة لنا هنا عن القول إن هذا الاعلان قد يكون فارغاً أجوف ، وتحضرنا الآن تلك الاعلانات الوثنية التي زعمت ان الله ظهر في أشكال بشرية أو حيوانية.أما في الكتاب المقدس ، فان الله يكلم الانسان فيما له مساس بحياته الادبية والاخلاقية . والنبي ، إن كان نبياً صادقاً ، يأخذ بأيدي البشر ليتقدم بهم الى حق الله ، معلناً لهم ما يقوله الله في ذلك الظرف المعين.فشعب اسرائيل يُساق الى النفي في بابل ، مؤمناً انه قد ترك الله وراءه في فلسطين ، ولكنه يجده في المنفى هناك معه . ويُساق هوشع النبي الى ادراك أعمق الأفكار عن محبة الله من طريق اختباره القاسي مع زوجته التي خانت عهده . وجملة الامر كله ، ان روايات الكتاب المقدس تعدُّنا لنرى انه لم يكن هيناً على الفلاسفة أن يستوثقوا من ذاتية القداسة والمحبة في الله . ولا عجب أن يكون الأمر كذلك .

وقد يُقال هنا: أفي وجهة النظر المسيحية شيء مايعدو حدود العهد القديم، أي دين اليهود ؟ وليس لهذا السؤال الا جواب واحد، وجواب جدّ خطير، ألا وهو اننا في الواقع نشرح العهد القديم في ضوء الجديد. والفكرة المسيحية عن الله لا تنفصل عن الموقف المسيحي حيال يسوع المسيح. وإن قلنا إن الله بار وأب محب، يطالب الخاطىء وينقذه، فكيف نعرف هذا ؟ إنه ليس عقيدة، وحتى العهد القديم لا يعتصم بها واثقاً. فما جوابنا اذاً ؟

الاعلان المعطى في يسوع المسيح

جوابنا الأول ان يسوع المسيح، الذي لا يجرؤ أحد اليوم على انكار تاريخيته، قد آمن بهذا وعلّم به وعاش بموجبه. ففي أمثاله البسيطة الرائعة — الخروف الضال والابن الضال وغيرهما كثير — نراه يضع في لغة عامة الشعب الحقّ المنطوي على ان الله أبٌ، طبيعته المحبة القدسية. على ان هذا ليس كل الانجيل، فان يسوع يعلن الآب، لا في كلمات ينطق بها فقط، بل في حياته وشخصه. وبينه وبين الله الآب وحدة وانسجام في الفكر والقلب والارادة. وبينه وبين الآب علاقة سرّية متينة الأواصر، لم يستطع تلاميذه أن يتقصّوا مكنوناتها «أنا في الآب والآب فيّ» — «من رآني فقد رأى الآب». فان رمنا أن نعرف طبيعة الله، على قدر ما يستطيع الانسان أن يعرف، فلا مندحة عن الرجوع الى شخص يسوع.

فرسالة المسيحية عن الله ليست اذاً عقيدة في مصطلحات وضعية، بل هي شخص — هو يسوع المسيح. وهنا تبدو لنا أهمية الأساس التاريخي

الذي يقوم عليه الدين المسيحي ، من حيث انه متأصل في يسوع . فهو ليس بدعة اختلقتها أوهام الناس وخيالاتهم ، بل شخصاً ظهر على مسرح التاريخ. ولقد تعرضت البيانات التاريخية الموجزة عن حياته على الأرض الى أشد صنوف النقد الصارم ، بل لم تتعرض حياة أخرى الى الفحص الدقيق والى مسبر الامتحان والاختبار، قدر ما تعرضت حياته ، ومع ذلك فقد خرجنا من هذا كله بيقين أشد وثقة أمتن بيسوع الناصري . وفي وسع المسيحيين أن يجابهوا العالم بانجيل أساسه حقيقة شخصية لا يجد اليها الشك سبيلا .

المسيحية والخطيئة البشرية

والآن نعود إلى موضوع آخر : ماذا عسى أن تقول المسيحية عن الخطية؟ كان على المسيحية منذ نشأتها الاولى أن تكافح وتناضل مع وجهات نظر الآخرين في معنى الخلاص. وانه لشيّق حقاً ان نلحظ انها قد عُنيت عناية جدّية من البدء بهذا الفارق الصارخ الذي ميّزها عن العقائد الأخرى . فالمذاهب الدينية الاغريقية الغامضة قد اتجهت عنايتها الى تقييد النفس البشرية في عالم من المادة والألم اكثر من عنايتها بحقيقة الخطية بالذات . ولم تكن الخطية في نظر كتّاب الاسفار المقدسة المسيحية حماقة أو دمامة ، ولم تكن داءً أو جهلاً ، بل هي عصيان وارادة شريرة جامحة ، ليست موجهة إلى تقليد من التقاليد الاجتماعية المرعية ، ولا الى نظام أدبي عاطل عن العنصر الشخصي ، بل الى الله الحي ذاته . ولم تحتل التوبة مكانة رفيعة في الكتاب المقدس وحسب ، بل قد حثّ الكتاب المقدس الانسان على

أن ينيب ويتوب ، لا عن هذا العمل أو ذاك من الأعمال الخاطئة ، بل من أجل نفسه. وعلّمه أيضاً أن يحكم على نفسه ويدينها على أساس مقياس يسوع المسيح الادبي .

وقلّ بين الناس مَن ينكر على المسيح سمو تعاليمه الأدبية الأخلاقية ، مهما يكن موقفه حيال المسيح ذاته . وليس هيناً على الذين يقرأون كلماته الأخاذة الخارقة عن النقائص البشرية مثل الأفكار الشهوانية ، والأعمال الجموحة، أو الطمع في المال ، أن ينسوها أو يغضّوا الطرف عنها . وهو يأمرنا أن نحب أعداءنا ، وأن نلقي وراء ظهورنا كل أثر من آثار الآداب الضيقة، وان نمارس بدلا عنها المحبة الواسعة المجيدة ، التي في نطاقها يهمي الآب السماوي غيثه على الأبرار والأشرار سواء . ونحن نعلم علم اليقين انه حين نقترب الى يسوع ، لا نقدر أن نبلغ مستواه ، واننا واقعون تحت دينونته ، لا بسبب الخطأ الذي نأتيه ، ولكن بسبب الخير الذي نأباه . وحين نقع تحت مؤثرات طهر يسوع ومحبته ، نتعلّم شيئاً عن معنى الخطية .

وهل هذا كلّ ما في الأمر ؟ أليس لدى المسيحية مزيد مما تعطيه غير شريعة جديدة تفضل ناموس موسى ، وهي بعد ليست إلاّ ناموساً ؟ هنا يبدو انجيل الخلاص في أنصع مظاهره وأبهاها . فالخطية، من وجهة النظر المسيحية عصيان ضد الله ، وشرود عن الصلة به ، ومعصية ضد قداسته تعالى . لكننا ندرك في سر الصليب أن الله لم يكتف بكراهة الخطية كراهية مقدسة ، ودينونته إياها والحكم عليها . انما يعلن لنا يسوع ، وهو على الصليب ، فكر الله في حمل الخطية على نفسه . ويبين لنا موت يسوع معنى خطية الانسان

في نظر الله ، كما ذهب اليه قدماء علماء اللاهوت في قولهم : « شناعة الخطية الشنيعة ! » — بل يبين أيضاً أن الله قد تنازل ليجـدد الصلة التي قطعت خطيتنا أواصرها ، و يتخطى الشقة التي أحدثها بيننا و بينه اعوجاجنا وزيغنا.

ومن المبادىء الأولية التي يجب مراعاتها في وجهة النظر المسيحيـة عن الخطية والغفران ، ليس ما يفعله الانسان ، بل ما يفعله الله . وترى ما الذي فعل الله ؟ أليس يُسأل هنا في هذا المقام هذا السؤال الفاحص الخطير ؟

لقد رأينا مدى العصور كيف عالج النـاس الموضوع . فهم إما قنعوا واكتفوا بمستوى من الآداب الوضعية المألوفة ، وأما أحنوا الرءوس أمام إله مطلق القوة، قد خسفت القوة فيه كل صلاح، بحيث لم يعد من الميسور إحكام صلة أدبيـة بين الانسان و بين الله ، و نما انهم تعلقوا بأهداب رجاء خافت وأسطورة كريمة عن إله يبدأ هو نفسه من جانبه بالعمل على انقاذ الانسان . على أنه اذا اقتصر هذا الرجاء على رغبة الانسان ليس إلا ، فانا لا نتقدم قيد انملة الى ما نصبو من يقين .

وفي قلب المسيحية ، وفي لبابها ، عاش يسوع الناصري ، ومات ، وقام ليكون مع تلاميـذه وأنصاره . وفي قلبها ولبابها أنه عاش في مكان عرفه التاريخ، وفي حقبة عيّنها الزمن ، ونسج الناس حوله أفكاراً ، لامن خيالات قلوبهم ، ولا في فضاء السموات الخاوية ، بل من قوة تأثيره فيهم وفضـله عليهم . ولقد وجد الناس في يسوع المسيح حضور الله ذاته ، الذي تنزل ليفتديهم . وكان ذلك الدليل الناصع في شعور السيد بان بينه و بين الله علاقة وثيقة . ويسوع هو الذي عرف أن ابن الانسان سيبذل حياته فدية عن

كثيرين . والذين كتبوا عن مجيء يسوع المسيح الى العالم ليخلّص الخطاة ، ويموت عن الفجار ليصالح العالم مع الله ، كانوا قوماً ممن رأوا مرأى العين، أو على الاقل عرفوا الذين رأوا السيد في حياته وفي موته الشنيع ، فتكلموا بما عرفوا هم أنفسهم .

وقد وقعت الواقعة فعلاً ، وتمّ العمل . ولم تعد الحادثة قصة يرويها الناس « عن » الله، لانه قد أجرى فعلاً ما أراده في (كلمته) ابنه. ومَن كان واحداً مع الآب قد حمل عبء خطايا العالم، وقَبِل أن تنفذ فيه مشيئة الانسانية . فان كنا نؤمن في المسيح ان الله يحب أولاده الخطاة ويردهم — وهم عاجزون عن ذلك — إلى الصلة التي قطعوا وشائجها بأعمالهم ، فانه لا يسعنا أن نقبل هذا الايمان أمراً هيناً، أو نتغاضى عن الكلفة الباهظة التي تقاضاها . ولدى مقارنة هذا بكل أنواع الترضية والاستغفار البشرية ، وبكل أسباب الشدة والآلام التى يحفل بها العالم ، فانا نرى هنا غفراناً قد أشتري ، لا بتضحية الانسان وآلامه ، بل بآلام الله ذاته .

* * *

هذه هي الرسالة التي تاق اليهــا البشر كما يتبين من الجهود والمحاولات المضنية في أديان العالم القديمة . فالذين تقربوا إلى الله ، أحسوا احساساً قهرياً بعدم جدارتهم واستحقاقهم، وعرفوا أن بينهم وبينه شقّة واسعة لا تتخطاها الذبائح، ولا صرامة الزهد والتقشف وما ينطويان عليه من إضناء وتذلل. ولن يؤمنوا إلا متى رأوا الله يتخذ الخطوة من جانبه أولاً ويبدو امامهم متأهباً لقبول الانسان في صلة القربى التي انقطعت أواصرها . والغفران ، الذي هو

إعادة ودّ مقطوع واستعادة صلة مبتورة ، ليس معناه محو الخطايا كما تمحى الكتابة من على الصبّورة، بل هو كلفة باهظة كما نتمثلها في الصليب وليس هذا مجرد الصفح والتجاوز عن الخطية ، فالله ليس « متراخياً متهاوناً »، ولكنه غافر غفور . هذا هو الحق الذي يخضد قوة الخطية و يذلّ شوكتها .

وما الذي تقول المسيحية عن الحياة والموت ؟ قلنا ان انجيل المسيحية ليس مجرد شريعة جديدة تُطاع بالروح القانوني . كما أن الحياة المسيحية في جوهرها هي صلة بالله فيها تستقر روح الله (وهي روح يسوع) في روح الانسان . و بذلك يتسنى للانسان أن يختبر حياة الله ، فيقوى على غلبة التجربة وعلى فعل مشيئته تعالى . وليس في هذا كله شيء من الشعوذة أو السحر ، فالعملية خاضعة لنواميسها البسيطة الجامعة . ذلك أنه اذا أراد الانسان باتضاع أن يسكن الله في قلبه ، ورضي أن يقبله ، معترفاً بخطاياه وطالباً في اخلاص ملكوت الله قبل كل شيء ، فان الروح الالهي ينساب إلى داخله ، و يبدّل تدريجاً حياته و يجدد شخصيته .

وفي هذه الصلة بين الله والانسان ، في يسوع المسيح ، يتوافر لنا الرجاء المسيحي في الخلود . ولم يقل العهد الجديد إلا قليلاً لاشباع رغبة حب الاستطلاع والوقوف على وصف تفصيلي مسهب للعالم الآخر ، ولكن الكتّاب المسيحيين أفصحوا بجلاء عن نقطة واحدة: وهي أنه متى اُحكمت هذه الصلة الجوهرية بين نفس الانسان و بين الله في المسيح، فلن يكون للموت سلطان على تلك النفس . لأن هذه الحياة الجديدة أقوى من القبر . و يغدو الموت طوراً من أطوار الرحلة ، لا يعقبه أدوار متوالية من الوجود المتتابع كما يذهب

اليه الهنود في عقيدة تناسخ الأرواح، وانما يعقبه وجود سعيد تظهر فيه بأجلى معانيها الحياة المستترة في المسيح. وحين يؤمن المسيحيون بقيامة المسيح من الأموات، لا يقتصرون في هذا على المسيح وحده، بل يؤمنون أيضاً أن المؤمنين به سيقومون مثله. كيف لا وقد «صار باكورة الراقدين».

المسيحية والتقدم

ومن النتائج التي تترتب على هذه العقيدة في الروح واهب الحياة، أن المسيحية هي بالضرورة، كما أسلفنا، دين التقدم والرقي. وربما يبدي المسيحيون في بعض الأحيان شيئاً من الضعف والهزال في هذا المضمار، ولكن الأمر الذي لا ينكر أنه حيث يسود الروح المسيحي الحق، يصبح الصوت الداوي حاثاً الناس على التقدم والارتقاء. ومن الطبيعي أن ينظر القوم الذين يؤمنون في الله كروح، بينه وبين البشر صلة، الى الحياة كأداة لمظهر الله واعلانه، وأن يتعلموا المزيد من ارادته وطرقه، كلما تقدمت الاجيال وتعاقبت العصور.

بساطة الرسالة المسيحية

وإن كانت هذه اذاً خلاصة الرسالة المسيحية، فانا نلحظ فيها لأول وهلة بساطتها المتناهية. وحين نقول إن رسالة الانجيل بسيطة، لا نقصد من وراء ذلك الحط من قدر الجهود العقلية. فان هناك عالماً زاخراً يكشف في هذه العبارات البسيطة، وحكمة الانسانية لن تستوعب سراعاً معنى هذه الرسالة. ولكنها بسيطة بكل معنى الكلمة من حيث أنها تعنى أصلا بموقف النفس أزاء الله، وانها تجول في نطاق الحقائق الجوهرية العظمى التي تربط

الجنس البشري معاً ، عالمهم وجاهلهم ، كبيرهم وصغيرهم . وقد أستنبط من المسيحية كمية هائلة من العقائد (ولا ضير في هذا)، ولـكنها ما فتئت فصيحة البيان قوية النبرات، حين تواجه الحياة في أبسط أوضاعها وأصدقها ، وحين يجابه الرجال والنساء مشاكل الزمن والأبدية .

المسيحية دين جامع

ونرى ثانياً أن الانجيل في جوهره رسالة جامعة شاملة ، فليس فيها ما يقتصر فقط على أمة واحدة ، أو جنس واحد ، أو طبقة واحدة من الناس. ولم يفقه التلاميذ الأولون في بادىء الأمر أن الحدود اليهودية الضيقة قد زالت، ولـكن عبقرية الرسول بولس قد فطنت الى تضاعيف الرسالة من هذه الناحية، وعرف أنها لليهودي والاممي ، والبربري واليوناني ، والذكر والانثى ، على السواء، دون تفريق أو تمييز . فهل نحن في شك من هذا ؟ إن اعلان الله في المسيح قد خلا من كل نعرة عنصرية أو نزعة ضيقة — هو يسع البشرية قاطبة . وانجيل الخلاص من الخطية لجميع الناس ، كلهم فيه سواسية ، وهو لا يقوم على ذبائح وتقدمات معينة،ولا يتطلب ميزات عنصرية خاصة. وليس أساسه استحقاق الانسان وجدارته ، بل عطف الله ومحبته . حقاً ان رسالة الحياة في روح الله وقوته، التي بها يغلب الانسان التجربة ويفعل مشيئة الله، جامعة شاملة في دعوتها وفي آثارها. فلا حدود فيها ولا قيود، ولا شرق ولا غرب. ولا قداسة متفوقة للمستجدين البرّ، ولا انكار لحق البسطاء والجهلاء

في رؤيا السماء — ولكنها حياة بشرية كاملة،لأنها إلهية كاملة،فيها يشترك كل الناس على قدم المساواة .

وانه من الخطأ أن نزعم أن المسيحية واحدة بين نظم عديدة متنافسة . ونحن اذا قارناها بالاديان الاخرى ، فذلك لكي نرى بأوضح بيان حاجات النفس كما تمثلت في سعي البشرية الدءوب نحو الله، ولكي نرى كيف يشبع دين يسوع تلك الحاجات اللجوجة ، ويستجيب الى تلك الصرخات الصامتة . وان كان ثمة شيء حق أو جميل أو جليل أو صيته حسن ، في أي من أديان العالم الأخرى ، فالمسيحية لا تنكره ولا تبطله . وليس شيء من الحق في أي دين آخر من أديان العالم لا نجده في المسيحية، بل ان الاشياء التي رآها البشر في مختلف العصور بصور باهتة داكنة، والتي تاقت اليها الانسانية مدى الاجيال، نراها متلمعة في المسيحية ، ناصعة البيان قوية الوضوح. فان الدين ليس كفاح الانسان في طلب الله وحسب، وليس هذا كل ما في الدين، انما هو أيضاً اعلان الله ذاته للانسان. ولقد تاقت البشرية ، كما رأينا في هذه البحوث ، أن تؤمن باله قدوس محب. وحين يجيء يسوع الناصري في وسطنا، حينذاك تستجاب « صلاة الجنس البشري » . وحين نفوز بالجواب ، نعطاه على نمط يفهمه الطفل في سذاجته ، والشيخ في رصانته . ويفهمه الفقير والجاهل جميعاً .

مطالب المسيحية

وان صح هذا ، وهو صحيح ، وان كان الانجيل حقاً رسالة للبشرية قاطبة ، كان على الذين يؤمنون به تبعة ثقيلة . فهو إما رسالة يبشر بها العالم

كله وإلا فلا . وان قلنا إن الانجيل ليس للهندي أو الصيني أو الشرقي ، فهو لن يكون للانكليزي والامريكي والغربي ، وأحسب الضمير المسيحي يستيقظ تدريجاً الى عرفان هذه الحقيقة ، ونعني بها وحدة المهمة المسيحية في العالم أجمع. فان الأسرة البشرية بأسرها مرتبطة بهذه الشركة الواحدة العظمى. وتزول الآن بفضل التجارة والتعليم والاسفار والمؤثرات الأخرى، تلك الحواجز المادية التي قامت من قبل فواصل بين شعوب الأرض . فهل نتصور ان المسيحية التي تغلق احشاء رحمتها وهي ترى العالم مغموراً في الضنك والضنى ، تستطيع أن تبرىء ادواء المجتمع في البلدان التي تدعو نفسها مسيحية ؟ وفي صدد دين المسيح نحسب كل بخل أو شح في الروح أمراً خطيراً جسيما. فالكل للمسيحية وإلا فلا. والسبيل الامين الوحيد أمام الكنيسة المسيحية أن تنهض لتقوم بالمهمة التي تبدو أمامها مستحيلة . أما اذا اقتصرنا على الجهاد في زاوية واحدة، شلت قوتنا، وجمدت أعصابنا. فلنواجه المهمة كلها في ثقة هادئة مطمئنة معتمدين على الله ، عندئذ تعمل قوة الله ومحبته في عنفوان قوتها، ونكون لها شهوداً ، ونكون لها حماة الى أقاصي الأرض .

* * *

ولعل مسك الختام لهذه البحوث أن ننشر هنا الرسالة التاريخية الرائعة التي أذاعها المؤتمر المسيحي الدولي الثالث من مدارس في بلاد الهند على كل شعوب الأرض .

رسالة

المؤتمر المسيحي الدولي الثالث

الى كل شعوب الارض

سلاماً الى كل شعوب الأرض

وبعد، فنحن سبعون وأربع مائة مندوباً قد اجتمعنا من سبعين أمة ومن أجناس كثيرة في الأرض، لنبحث عن أمثل الوسائل التي نذيع بها في العالم رسالة محبة الله الازلي المعلنة في يسوع المسيح.

ولقد تبينا من التقارير التي انتهت الينا، من كل انحاء الأرض، ان الأوبئة القديمة التي تفتك بالانسانية قد نشطت في هذا العصر نشاطاً لم يسبق له مثيل. ففي كل بلد من بلدان العالم يجثم شبح الحرب أو الخوف من الحرب على قلوب الناس، ويسدل ظلاله الكثيفة على آمال البشرية وأمانيها، والكراهية بين الجماعات والشعوب، وما ينجم عنها من اضطهاد قبيح مذموم قد أمست إلهاً قومياً في كثير من الميادين، وتزداد سطوة هذا الاله حتى ليخشى أن يغدو معبوداً تعنو له الجباه، والجشع الكلب في المال يقيم فاصلاً بين الذين لهم والذين ليس لهم، ويحفز الاخيرين على الغضب والانتقاض والثورة، ويُفزع الاولين بداء العصبية التي يحسُّ بها القوي حينما تستهدف قوته للخطر.

ومرة تلو أخرى أحسسنا بشعور الاستنابة والندم ، بعد اذ أدركنا أن كل هذه المساوىء الآ كلة من صنع يدي الانسان . وهي تحمل معها طابع الصنعة البشرية ، كما تحمله السيارة أو الطيارة . فلا الفيضانات الجارفة ، ولا الزلازل المدمرة، ولا قوى الظلمة الغامضة الخارجة عن ارادتنا، هي التي تشعل نيران الحروب أو تخلق التوتر الاقتصادي . وأنا لنعلم اننا عائشون في فوضى خلقناها بأيدينا .

ومرة تلو الاخرى،أدركنا على مضض أن المساوىء التي تصدمنا ليست من صنع ارديا‌ء الناس وحسب ، بل من صنع أخيارهم أيضاً . فان أخطر نكباتنا وأشنع مصائبنا لم تحلّ بنا على أيدي أناس تعمدوا إيقاع الجنس البشري في الاضطراب والقلق ، بل على أيدي قوم ظنوا انهم فعلوا أفضل ما لديهم في الظروف المحيطة بهم. ولم يقم بعد الانسان الذي كان له من الحكمة واصالة الرأي قسط يمكنه من تخليص العالم من آلامه الحاضرة . ولم نعرف بعد الانسان الذي له من هذه الحكمة وأصالة الرأي قسط يستطيع به ان ينقذنا الآن .

على اننا في هذه اللحظة نرانا مضطرين للاستناد إلى ايماننا لنتخلص من التشاؤم إلى رجاء مجيد . ونعلم يقيناً ان هناك « واحداً » ــ على غير غرارنا ــ لا يُهزم ولن يعرف الهزيمة . ففي اعلان المسيح نرى الله ، لا إلهاً بعيداً لا يبالي ولا يعبأ إلاّ بنفسه ، بل أباً محباً للجنس البشري كابناء له ، حباً لا يُوصف ولا يُستقصى . ونحن الذين عرفنا المسيح رسوله وابنه ، مصدعاً بالألم على الصليب الذي ارتفع عليه بسبب محبته للانسان — قد فزنا برؤيا

خارقة متلمعة، ازاحت لنا اللثام عن عمق عاطفة الله نحو خاصته . و بسبب هذه الرؤيا المجيدة استعذب المسيحيون ميتة الاستشهاد مدى عصور التاريخ، ونزحوا عن الأهل والوطن إلى أقاصي الأرض لحمل رسالة الأنجيل . وفي اتضاع كثير نسجل هنا شكرنا وامتناننا أن نرى- حتى في هذا العصر — دلائل متكاثرة على أن الرجال والنساء ما برحوا ينزحون الى أوطان الاغتراب رسلاً أمناء مجاهدين لأجل المسيح .

ومما لا مراء فيه ان الله وحده هو الذي ينقذ الشعوب ، وان الله أبا ربنا يسوع المسيح هو الذي يقدر ويريد أن ينقذ. وانه ليلوح لنا جلياً ان الوسائل التي يتطلبها الله ليست الرجال والنساء من أصحاب المثل العليا وحسب ، بل هم الذين يجاهدون في غير انقطاع بالصلاة والعبادة لتحقيق هذه المثل العليا على نور ارادته الصالحة — ويثابرون في غير ونى على تمحيص هذه المثل وتوكيدها. والله لا يطلب في الأزمة الحاضرة انسان الاخلاق المجرد . انما يطلب الذي يوقظ جذوة النار في اخلاقياته وأدبياته ، ويثابر على النماء المضطرد متجدداً كل يوم بلمسة الله المنعشة . وليس يستطيع أحد منا الوقوف بلا عيب أمام نعمته ، على أن الرجاء الوحيد امام العالم متعلق بالذين يجاهدون على الأقل أن يعرفوه وأن يتبعوا طريقه.

أما الآلهة القومية من أي نوع كانت، وآلهة التعصب للعنصر أو الطبقة، فهذه أعجز من أن تخلصنا . ثم ان الاعتراف بالله في المسيح لا يسلب الانسان الولاء لامته أو أسرته أو ثقافته . وحينما تأخذ أية أمة المسيح أخذاً جدياً . وحينما تعتصم به أية ثقافة قديمة ، فهو لا يفقدها ذرة من الخير فيها ، بل على

نقيض ذلك يرفعها إلى مصيرها الأعلى ، ولـكنه ينقذها من الضيق بنفسها ، ويبسط أمامها مجالاً جديداً للنمو والارتقاء ، ويهيىء لها إرادة صالحة اكثر اتساعاً من الولاء القومي أو الولاء الضيق لثقافة معينة ، ارادة تنسق ومحبة الله الواسعة .

ولقد رأينا في وسطنا أن الولاء لمبادىء المسيح يصنع العجائب بين الرجال والنساء . واذا صلينا ذابت ، فيما نحن نصلي ، الحواجز التي تفصل قومية عن أخرى وطبقة عن أخرى . واذ قد ارتبطنا في الروح القدس بعضنا ببعض وكلنا بالله ، فاننا قد عرفنا معنى الشركة والألفة . ونحس أن هذه الحالة التي عرفنا وعدٌ لما يمكن أن يكون على كل الأرض .

ونوجه إلى كل الزملاء المسيحيين في العالم أجمع نداء لـكي يشاركونا في تـكريس جديد لله . ومما لا شك فيـه أن الله يدعونا في هذه الاوقات لنخرج انفسنا من نطاق الذاتية الضيق ، وان نقبل على مذابحه ، وان نتعلم منه ، وأن نعلن طرقه للناس في كل علاقات الحياة . ولـكي نعلن الله للدولة، علينا أن نجاهد لتوطيد العدل بين جميع الناس . أما في عالم التجارة ، فعلينا أن نضع حداً لهذا التنافس القتال سعياً وراء المنافع المادية الشخصية ، ونعمل لتعميم الخير العام الشامل للجميع . ان الحال يتطلب منا في كل مكان خدمة مضحية مشرّبة بروح الايثار . والله نسأل أن يعين كنيسته لتحمل قصـة محبته الى البشرية قاطبة ، حتى تشمل هـذه المحبة الأرض كلها ، وتربط الأمم والأجناس والطبقات بروابط العطف المتبادل ، متمنطقة في هذا كله بايمان في المسيح ، لا غالب له ولا قاهر .

ملحق ١

بيان عددي

لأتباع أديان العالم الكبرى

(منقول عن "The World Almanac, U.S.A.")

يهود	١٥و٦٣٠و٠٠٠
مسلمون	٢٠٩و٠٢٠و٠٠٠
مسيحيون	٦٨٢و٤٠٠و٠٠٠
بوذيون	١٥٠و١٨٠و٠٠٠
كنفوشيوس وتاوزميون	٣٥٠و٦٠٠و٠٠٠
هندوس	٢٣٠و١٥٠و٠٠٠
شنتويون	٢٥و٠٠٠و٠٠٠
عباد الأرواح الخ .	١٣٥و٠٠٠و٠٠٠
أديان مختلفة أخرى	٨٠و٨٧٠و٠٠٠

والمقصود « بعباد الأرواح » تلك الأديان الوثنية الساذجة والجماعات البشرية التي تعتقد في الحيوانات أو الجمادات أو الأرواح التي يدين بها

الوثنيون في أفريقية والقبائل المتأخرة في بلاد الهنـد وأمريكا الجنوبية وأستراليا .

أما « أتباع الأديان الاخرى » فهم الجماعات الصغرى المتفرقة مثل الدروز وأتباع زرادشت وغيرهم .

على أنه من الحق أن نقول إن هذا البيان تقريبي فقط ، فـكثيرون من الـكنفوشيين والشنتويين مثلا بوذيون أيضاً ، و إذا أخذنا بهذا القياس يزداد عدد البوذيين عن الرقم المبين هنا . ثم ان كثيراً من هذه الأديان تنتشر في بلدان خلو من الاحصائيات الدقيقة . وحسبنا أن نجد في هذا البيان فـكرة عامة عن القوة العددية لـكل دين من أديان العالم الرئيسية ، وان كانت هذه القوة العددية لا تعنينا بقدر ما تعنينا القوة الروحية التي يعتز بها كل دين ويحسبها ثروته الباقية ، ومصدر منعته ، واكبر عوامل انتشاره.

ملحق ٢

بيان تاريخي

يبين بوجه التقريب الحوادث التاريخية

في هذا الكتاب

قبل الميلاد

٢٠٠٠ ـ ٦٢٧	تاريخ كتابة « شوكنغ » وهو مجمل التاريخ الصيني
١٧٦٥ ـ ٥٨٥	« « « شيكنغ » وهو كتاب أودس الصيني
١٠٠٠	التاريخ التقريبي لجمع أناشيد « فيدا » الهندية
١٠٠٠	« « لعصر زرادشت الفارسي
٨٠٠ ـ ٥٠٠	تاريخ كتابة أسفار البراهمة الهنود
٨٠٠	نبوات عاموس
٧٥٠	« هوشع
٧٤٠	« اشعياء
٦٢٧	« ارمياء

٦٠٤	مولد لاوتز
٥٥١	مولد كنفوشيوس
٥٠٠	التاريخ التقريبي لمولد بوذا
٤٢٧	مولد أفلاطون
٣٨٤	« أرسطو

بعد الميلاد

٣٠	تاريخ الصلب
٦٠ — ٦٥	كتابة بشارة مرقس
٨٠ — ٨٥	« بشارتي متى ولوقا
١٠٠ ـ ١٢٥	« بشارة يوحنا
٢١٩	الفراغ من كتابة « المشنة اليهودية »
٥٧٠	مولد محمد
٦٢٢	الهجرة
١١٨٢	مولد محيي الدين بن العربي
١٢٦٠	وفاة بن العربي

فهرس

صفحة

١ — البوذية ٥
٢ — الهندوسية ٢٣
٣ — الكنفوشية ٤٠
٤ — الشنتوية ٥٧
٥ — اليهودية ٧٢
٦ — الاسلام ٧٧
٧ — المسيحية ٨٤

BookNumber: 154349
Subjects: [الديانات المقارنة., الديانات.]
Contributor: Bibliotheca Alexandrina
ISBN:
PublicationDate: [19--]
Project: Million Book Project
CallNumber: 200S1321
Language: Arabic
Authors: سعيد، حبيب.
Publishers: دار الشرق و الغرب
Keywords: [الديانات. bibalex الديانات المقارنة. bibalex]
Title: اديان العالم الكبرى
NumberOfPages: 112
WidthOfPages: 1627